





# دافيدكوبرفيلد

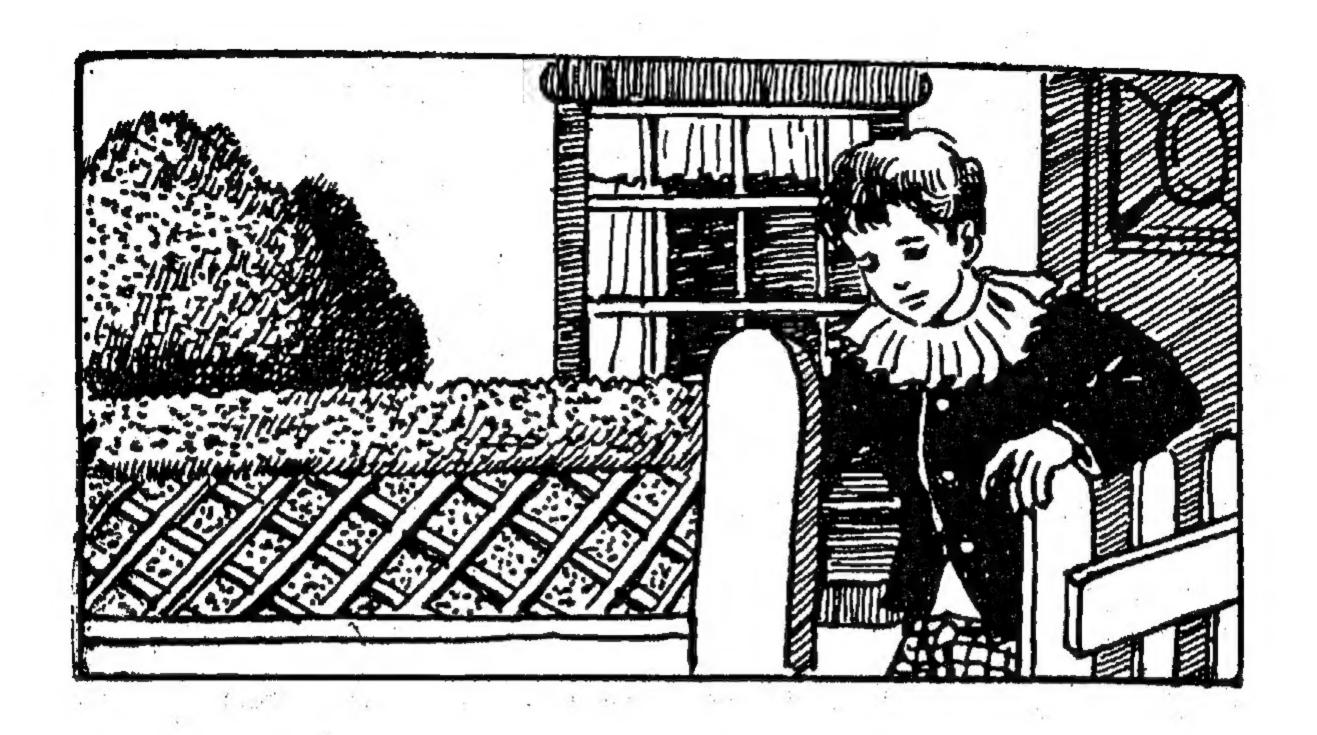
### ENCESTED ENCORPORT

11

## دافيدكوبرفيلد

بقلم: عادل الغضبان عن: شارلز ديكنز

الطبعة السادسة



وُلِهِ مَّ بِمِعة ، ولمَّا انفتحتْ عيناى على نور هذا العالم ، كان والدى قد أغْمض جَفْنيه عنه منذ أكثر من ستة أشهر . وكان أجلُّ شخص فى أسرتنا ، عمَّة لوالدى تدعى « تروتوود » ولكن أمِّى كانت تسميها « بتسى » ، وكانت هذه العمِّة آنسة عانساً تقيم فى إحدى القرى البعيدة عن مدينتنا .

ويغلُبُ على ظنتى أن والدى كان من هذه العمة الرجل الحبيب المدلل ، ولكنها لم تغفر له قط أنه تزوج أملى ، وآفة خلك الغضب والسُخط أن أملى كانت فى نظرها ، فتاة صغيرة لا تصلح للزواج ، ولقد كان أبى ،

وعمره ضعف عمر والدتى ، خاثر الهمية ضعيف الصحة ، فتُوفِي بعد سنة من زواجه ، وقبل سنة أشهر من مولدى ، ولبث فى أثناء زواجه بعيداً عن عميى لا يزورها ولا تزوره .

تلك كانت الحال في صباح ذلك اليوم الذي هبطت فيه إلى هذه الحياة .

وقبل بضع ساعات من مولدى، شاهدت أمنى سيدة تجتاز الحديقة الى منزلنا، فحد تتها النفس أنها الآنسة « بتسى» وما كانت قد عرفتها من قبل، وتجسم فيها ذلك الاعتقاد ، لما رأتها تمشى بخطوات حازمة ، وهي شايخة الآنف ، مرفوعة الرأس ، فثل ذلك المظهر ، لا يمكن أن يكون إلا مظهر العمة « بتسى » .

وكان والدى قد رورى لوالدتى، أن عمته «بتسى» لا تسلك فى معاملتها الناس، مسلك بقية البشر، وثبت فى ذهن والدتى أن القادمة عليها هى العمة «بتسى» نفسها ، عندما رأتها لا تتوجة إلى الباب، كما يفعل جميع الناس ، بل تنعطف إلى النافذة ، وتضع أنفها على زُجاجها حتى انقاب أنفا أبيض مُنتبسطاً.

فنهضت أمتى ، وكانت شابة ونية حيية ، واختبأت وراء مقعد في زاوية من زوايا الغرفة ، وبعد أن أجالت العمة « بتسى » نظرها في جوانب الغرفة ، من وراء زُجاج النافذة ، وقع بصر ها في آخر الأمر على هي الغرفة ، من وراء زُجاج النافذة ، وقع بصر ها في آخر الأمر على المحافظة المح

أمنى، فأشارت إليها أن تفتح الباب لها، شأن من تعود الأمر والنهى، فأذعنت أمنى للإشارة، وفتحت الباب، فابتدرتها العمة قائلة:

\_ « أعتقد أنك زوجة "داڤيدكوبرفيلد" . » فقالت أمنى بصوت

ــ « نعم يا سيدتى ! » فقالت السيدة :

\_ «أنا الآنسة "تروتوود"و يخيتًل إلى أنك سمعت بى!» فقالت أمتى:

ـ «أنا الآنسة "تروتوود"و يخيتًل إلى أنك سمعت بى!» فقالت أمتى:

ـ « نعم يا سيدتى ، لقد سرتنى كثيراً أن أسمع عنك كريم الحديث . » فقالت العمة متعجرفة :

- « إذن يسر ك اليوم أن ترينى . » فاطرقت والدتى برآسها ، ورجتها أن تدخل المنزل فدخلت ، وسارتا معا إلى الغرفة التى تركتها والدتى منذ قليل ، وجلست كل شمهما فى مقعد ، ولزمتا الصمت الطويل . وكانت العمة تحاول أن تُخميد نار السَّخط المتأجّجة فى صدرها ، أمّا أمّى فقد ضاق بها الصبر ، فانهلت الدموع من عينها . فقالت لها العمة بصوت جهورى :

- « وعلام البكاء ؟ اختلعى عنك قنبعتك أيتنها الطفلة حتى أتمكن أراك . » وملا الحوف قلب أمتى ، فما استطاعت إلا أن تلبتى هذا المطلب بيد مرتجفة ، فانفلت معها شعرها الرسيل فقالت العمة : - « آه يا إلهى ما أحد ت سنك ! إنك حقاً لطفلة صغيرة . »

والواقع أن أمتى كانت فى مقتبل الشباب، غير أن مظهرها كان يُوهم الرّائى أنّها أصغرسنًا مما هى عليه، فطأطأت المسكينة رأسها، كأن حداثة سنّها ذنب وتكبته، وقالت وهى تشرّق بالدمع، إنها على صغر سنها قد أصبحت أرملة، وسوف تُصبيح أمًّا. ثم خيّم السكوت على المرأتين، فوفعت أمّى بعدقليل نظرها، فإذا العمّة بالسة أمام الموقد جالسة المتذمر، وقد كشفت عن ساقيها، وشبكت يديها على رُكُبتيها، ووضعت قد مَبها فوق حافة الموقد. وعلى حين فجأة، رفعت العمّة رأسها وقالت:

- « مميّاً لا شكّ فيه أنك ستلدين أنتى . . . نعم أنثى ما فى ذلك ريب . . . نفسى تحدّ ثنى بأن المولود سيكون أنثى . . . فاعلمى باطفلتى ، أن هذه الأنثى ستكون منذ يوم ولادتها . . . » فتشجّعت أمتى وقاطعتها قائلة :

- « أو أن هذا الغُلام . . . » فقالت العمة مُغْضَبة :

- « قلتُ لك إن نفسى تحدّثنى بأن المولود سيكون أنثى . . . لا تقاطعينى . . . أريد أن أكون صديقة هذه الأنثى منذيوم ولادتها . . . . وسأكون رائدتها . . . وأرجو أن تسميها " تروتوود كوبرفيلد " . . . هل كان " دافيد " رجلاً كريم الأخلاق معك أيتها الطفلة ؟ . . . وهل كنتما على وفاق ووئام ؟ » فقالت أمتى :

- «كنَّا من أسعد الناس، وكان معى طيّب القلب كريم الخُلُق! »

- \_ « لقد كنت يتيمة "أليس كذلك ؟ »
  - ۔ « نعم یا سیالتی . »
- \_ « ومربية أطفال ؟ » فقالت والدتى في سذاجة وصراحة :
- ــ « كنتُ مساعدة لمربية أطفال ، فى منزل كان المستر "كوبرفيلد" كثير الترد د عليه ، فطلب منى أن يتزوجني فقبلت وتزوجنا . » فقالت العمة ونظرها لا يزال عالقاً بلته بالنار في الموقد :
- ــ « يا لك من مسكينة! أتعرفين أن تقومي بعمل من الأعمال؟ » فقالت أمنى:
- « كان المرحوم زوجى يعلمنى ما أجهل، ويساعدنى فيما يتشق على . . . » وبدأت أمى عند تذكار على . . . » وبدأت أمى عند تذكار والدى ، تر فير وتشهق ، فقالت العمة في صوت رقيق :
  - « حسن . حسن . »

وازداد ألم المخاص على والدتى فانصرفت إلى غرفتها ، وجاء الطبيب بعد قليل يعدو ها ويعتنى بولادتها ، ولما فرغ من عمله ، لقيته العمة عند باب الغرفة ، وسألته وهي مكتوفة الذراعين :

- « كيف حالها ؟ » فقال الطبيب :
- « على خير حال يمكن أن تكون عليه أم طديثة السن مثلها . ولا أعارض في أن تريها إذا شئت . » فقالت العمة :

- \_ « أسألك عنها هي كيف حالها ؟ » فقال الطبيب : \_ « لقد حد تُتُمنك ياسيدي عن حالها ، وقلت لك إنها بخير وسلامة . » فقالت العدمة متضايقة :
- « قلتُ لك : هي . هي . أي الطفلة المولودة . » فقال الطبيب : « عُدُرًا يا سيّدتي ، لقد كنتُ أظن أنك تعلمين . . . إن المولود غُلام " ذَ كَثَر . » فلم تُحر العمّة جواباً ، بل تناولت قبعتها ولبستها وخرجت من المنزل إلى غير رّج عة .

وها أنذا أقص قصة حياتى ، فإذا رجعت بالذاكرة إلى أيام طفولتى ، بدت لى شخصيتان واضحتا المعالم كُلُ الوضوح ، إحداهما أمتى بشعرها الجميل، وشبابها الغيض ، وثانيتهما خادمتنا « بيجوتى » بعينيها السوداوين، وخد ينها الأحمرين، وذراعيها العب لمتتين. ويخيل إلى عند هذه الذاكرة ، أنى أرى أمتى والخادمة تداعبانى معا ، وأتذكر إصبع « بيجوتى » المملوء بثقوب الإبرة ، وهو ممدود إلى ليساعدنى على المشى .

وإنى لأتذكر أشياء أخرى من طفولتى : فهناك منزلنا والحديقة وبرج الحمام الحالى من الحمام ، ومأوى للكلاب وليس فيه كلب واحد ، وعدد من الد جاج تذ رع صحن الدار ، وديك لا يألو ينظر إلى ويقفز من موضع ... وهناك مطبخ « بيجوتى » وأبهاء المنزل ، ولاسيما البه الكبير الذي كنا أنا وأمتى و « بيجوتى » نقضى فيه سهراتنا ،



فما كانت «بيجوتى » تفارقنا عندما نكون و حددنا ، وتكون هي قد فرغت من عملها أو تطريزها . وهناك المقاعد الخاصة بنا في الكنيسة ، قامت إلى جانب نافذة نستطيع أن نرى منها منزلنا ، وكانت «بيجوتى » كثيرة التطلع منها إلى منزلنا ، لتطمئن على أنه ما أحرق ولا سرق في أثناء غيابنا عنه .

وأضيفوا إلى هذه الذّ كثريات ما كنتُ أشعربه في طفولتي من سلطان « بيجوتي » على وعلى أمتى ، فما كنتا نخالف لها رأياً ولا نصيحة .

وذات مساء كنت أنا و «بيجوتى » وحدنا فى الغرفة ، وكنا جالسين أمام الموقد أقرأ لها قصة من قصص التماسيح ، وكان النهاس قد أخذ يُداعب جفونى مداعبة تقيلة ، ولكنى كنت أغالبه انتظاراً لعودة والدتى حتى أحييها قبل أن أنام ، وكانت والدتى تتناول العشاء عند أحد الجيران ، ولست أدرى بأى سبب من الأسباب توهممت «بيجوتى » وهى تستمع إلى وتخيط بعض الملابس أن التماسيح كانت صنفاً من الخضر ، وكلما بدأ النهاس يغلبنني على أمرى ، كانت تساعدنى على طرده وتصبيح بى قائلة: النهاس يغلبنني على أمرى ، كانت تساعدنى على طرده وتصبيح بى قائلة: والمرة أي بعض صفحات أخرى من قصة التماسيح ، فما أشوقتنى إلى معرفة أى صنف هى! » فأستمر فى القراءة ... وبعيد الساعة العاشرة سمعنا باب الحديقة أيطرق ، فخففنا معاً إلى فتشحه ، وكان الطارق والدتى وقدعادت فى صدفة أرجل جاء يوصلها إلى المنزل ، وتبيئت أنه أنه فإذا هو الرجل وقدعادت فى صدفة رجل جاء يوصلها إلى المنزل ، وتبيئت أنه أنها فوالرجل أوقدعادت فى صدفة رجل جاء يوصلها إلى المنزل ، وتبيئت أنه أنها فوالرجل أوقدعادت فى صدفة رجل جاء يوصلها إلى المنزل ، وتبيئت أنه أنه فإذا هو الرجل أوقدعادت فى صدفة رجل جاء يوصلها إلى المنزل ، وتبيئة أنه أنها فا فافا فوالرجل أوقد عادت فى صدفة المرا المالية والرجل أوقد عادت فى صدفة المناس والمناس والمناس

الذى زارنا يوم الأحد الماضى ، فانشَنَى يلداعب خدى ، ولكنتى نفرت من صوته ومن شكله ولا أدرى لماذا . وسمعت والدتى تشكره على عسائه باصطحابها إلى المنزل وسمعته يقول لى :

\_ « ألا تحييني يا عزيزي تحيية المساء ؟ » فقلت :

\_ « عيم مساء يا سيدي . » فقال وهو يضحك :

\_ «هات بدى وصافح فى ولنكُن صدية بن. » فددت بدى وتصافحنا وانصرف . وتكررت زورات هذا الرجل لنا، وما كنت أزداد إلا نفوراً منه دون أن أستطيع إدراك سبب ذلك النفور . وفى أمسية من الأماسى، كانت والدتى قد خرجت كعادتها تتناول العشاء عند أحد الجيران، وكنت أنا و « بيجوتى » نقضى الوقت معاً فقالت لى :

\_ « أتريك أن عزيزى أن تصحبنى لنقضى أسبوعين فى ضيافة ٍ شقيقى ؟ » فقلت :

ـــ « وهل شقيقيك رجل طيب القلب لطيف المعشر؟ » فقالت وقد رفعت يدها إلى السماء مستشهدة بها :

- «إنه يفيض رقة وعذوبة نقس ... ثم لاتنس أن القرية التي يسكنها ، تقع عند شاطئ البحر ، فهناك السفن والمراكب وصيادو السمك، وهناك أيضا و شام " ابن شقيقي ، وسوف يسره أن تصطحبا وتلعبا معاً . » فأغراني برنامج تلك الزيارة فقلت لها :

ــ « إنى أقسل أن أقوم بتلك الرجلة عن طيب خاطر ، ولكن هل توافق أمنى عليها ؟ » فقالت :

-- « أنا كفيلة برضاها ، ولاستها أنها هي أيضاً ستقضي أسبوعين في ضيافة إحدي صديقاتها في بلدة قريبة » .

ورضيت أمنى وحد د موعد السفر ، فرحلت أنا و «بيجوتى » فى الموعد المضروب ، مستقلين إحدى مركبات الأجرة ، فلم نكد نصل إلى القرية حتى رأينا «شام» ابن شقيقها واقفاً عند شاطئ البحرينتظرنا ، وهو فتى يكبرنى سنا غير أن نظراته وقسمات وجهه ، تدل على سذاجة الأطفال ، فحملنى على ظهره ، وحمل بإحدى يديه حقيبتى كأن الصداقة موطدة أركانها بيننا منذ زمن قديم ، وتبعتنا «بيجوتى» حاملة المصداقة موطدة الزاد، فسمعته بعد قليل يقول لى :

-- « هو ذا مسكننا . » فأجالتُ طرَّ في في أنحاء المكان الذي وصلنا اليه . ، فلم أجد مسكناً من المساكن ، اللهم الا مركباً صغيراً غارقاً عند رمال الشاطئ ، ومجللًا بألواح من التنك ، فقلت له :

- « أهذا الذي نراه أشبه بسفينة ؟ » فقال :

-- « هو ذاك . »

ولو كان المسكن ُ الذي سننزل فيه قصراً من قصور الأساطير ، لما مُسرِرْتُ به سروري بتلك السفينة الغارقة التي سآوي إليها ، فقد تمثلاً تُها سفینة عظیمة ، مخترت عُباب الماء أیاماً ولیالی ، ثم رماها القدر إلى الرمال لتستقر علیها ، وتكون مأوای مدة أسبوعین ، وسر فی كذلك أن أشم فی هذا المسكن رائحة السمك ، ولقد علمت من « بیجوتی » أن شقیقها یصطاد السمك و یتاجر به ، فلا عجب أن كانت فی تلك السفینة أو فی ذلك المأوی كمیات منه .

وكان فى استقبالنا عند ذلك المسكن، امرأة مهذّ به، تلبس رداء أبيض، وقد وقفت إلى جانبها صبية صغيرة جميلة، كانت تتحلّى بعقد من اللؤلؤ الأزرق. فجلسنا فى الحال إلى المائدة نتناول طعام الغداء، ثم أقبل علينا رجل طويل الشّعر، ساذج النّظر، فإذا هو السيد « بيجوتى » أى شقيق خادمتنا « بيجوتى » ، فحيانا وحيّيناه ، ثم تناولنا بعد العصر الشاى واجتمعنا معا فى المساء ، نسّمر ونتحد شفقلت لرب المنزل على سبيل الدُّعابة :

- ... « يا سيد در بيجوتي "! » فقال :
  - : « نعم یا عزیزی . » فقلت :
- ۔ « اللّٰ نك تعيش فى ضرّب من سفينة نوح ، أطلقت على ابنك اسم " شام " ؟ » فرأى السيد « بيجوثي » أن سؤالى عميق المعنى ، فتجاوز عن عمقه وقال :
- « لستُ أنا الذي سَمِيته بهذا الاسم وإنما هو أبوه . » فقلت :

- ــ « حسبته ابنك يا سيدى . » فقال :
- ــ « هو ابن شقيتي " جو " . » فقلت بعد صمت قليل :
  - \_ « أمات أبوه ؟ » فقال:
- « مات غرقاً! »ودهشت من أن لا يكون « بيجوتى» هذا والد الفتى « شام » وقلت فى نفسى لعل صلات القربتى بين الحاضرين هى غير ما يبدو لى ، فشئت أن أستوضح الأمر ، فقلت للسيد « بيجوتى » وأنا أنظر إلى الصبية الحميلة صاحبة العقد الأزرق :
- \_ (و "أميلي "الصغيرة؟ هي لا شك ابنتك يا سيد "بيجوتي "؟ » \_ « كلا يا عزيزي ! إنها ابنة أحد أنسبائي . » فسكت قليلا مم سألته :
  - « أمات أبوها أيضاً ؟ » فقال :
    - \_ « مات غرقاً! »
- شعرتُ بثقل ذلك الحديث ، ولكنتى صَمَّمَت أن أذهب فيه إلى النهاية فقلت :
  - \_ « ألك أبناء يا سيد . « بيجوتي " ؟ » فقال ضاحكاً:
- \_ « كلا يا سيدى فأنا رجل أعنزت . » فصحت فيه مدهوشا ، وقلت وأنا أشير إلى المرأة ذات الرداء الأبيض :
  - « وهذه من تكون إذن ؟ » فقال :

### \_ « إنها السيدة " جود " . »

وهنا أخذت « بيجوتى » أى صاحبتى الحادمة « بيجوتى » تغمزنى بعينيها ، وتطلب إلى أن أكف عن مثل هذه الأسئلة ، فأذعنت لغمزاتها ، وعندما أويت إلى فراشى أفهمتنى « بيجوتى » أن هذه السيدة هى أرملة بحاركان شريك السيد « بيجوتى » فى امتلاك أحد القوارب ، فمات ولم يترك لها موردا تعيش منه ، فكفل معاشها السيد « بيجوتى » وإن لم يكن على يسر ورتحاء ، فأكبرت فى نفسى مأثرة الرجل ، وأثنيت على أريحيته . يسر ورتحاء ، فأكبرت فى نفسى مأثرة الرجل ، وأثنيت على أريحيته . وفى الصباح ، ذهبت مع « أميلى » فاتنتى الصغيرة نجرى معاً على رمال الشاطئ ، ونجمع منه الأصداف . وعلى هذه الوتيرة من المرح والسرور ، قضيت الأسبوعين ، ثم قفلت راجعاً مع « بيجوتى » الحادمة والسرور ، قضيت الأسبوعين ، ثم قفلت راجعاً مع « بيجوتى » الحادمة والسرور ، قضيت الأسبوعين ، ثم قفلت راجعاً مع « بيجوتى » الحادمة والمرتنا ومنزلنا .





۲

شعرت ونحن عائدان إلى مدينتنا ، أن « بيجوتى » يخالجها شيء " كثير" من الحرّج ، فلم أفهم سببه ، فلما وصلنا إلى المنزل انفتح لنا الباب ضاحكاً باكياً ، وضاق صدرى إليا وجدت خادمة عريبة تستقبلنا ، وقد كنت أرجو أن أرى أمى تخف إلى استقبالنا ، فصحت في « بيجوتى » : كنت أرجو أن أرى أمى تخف الما تعد أمي من رحلتها ؟ » — « ما هذا يا "بيجوتى " ألماً تعد أمي من رحلتها ؟ » — « بلتى عادت يا سيد "داڤيد" ... انتظر قليلا فاخبرك . » وهى تتظاهر بالمرّح والغباطة ، فقلت لها : — « لماذا أدخلتنى إلى المطبخ ؟ أين أميّى ؟ لماذا لم تستقبلنا عند الباب ...

أأصابها مكروه ؟ أماتت هي أيضاً ؟ » فقالت « بيجوتي » متلعثمة :

- « يا سيد " داڤيد " . . . كان على " . . . أجل كان على " أن أقول لك . . . أن أقول لك قبل اليوم . . . ولكنتني لم أجد الفرصة منواتية . . . كان على " أن أقول لك إن لك اليوم والداً . » فارتجفت مفاصلي ، وامنتنقع لوني ، وخنيسًل إلى " أن " ريحاً من قبر والدى قد لفحت وجهي وأن الأموات قد بنعيثوا من قبورهم . فقالت لى « بيجوتي » :

\_ « والدآ آخر . » فقلت مدهوشآ :

\_ « والدأ آخر ؟! » فقالت « بيجوتي » وقد غصّت بالكلام:

ــ « تعال معى لتراه . » فقلت كلا :

- « لا أريد أن أراه . » فقالت متلطفة :

- « وأملك ؟ ألا تريد أن تراها . »

وجذبتنى من يدى ، ودخلنا البهو الكبير ، فسارعت والدتى إلى تقبلنى فشعرت أن فى مسارعتها إلى شيئاً من الحجل يعرقل خطواتها ، ورأيت هناك السيد «مردستون» وهو السيد الذى كان قد صحب أمتى ذات لياة إلى المنزل ، فخف هو أيضاً إلى وقال :

- «كيف حالُك ياعزيزى . » فصافحته ثم خرجت من البَّهو إلى غرفتى ، فإذا هي غير غرفتي القديمة ، ثم جُلتُ في أنحاء المنزل والحديقة فوجدتُ كل شيء قد تغيّر فيهما، حتى مأوى الكلاب الحالى ففيه اليوم

کلب ضخم أسود، استقبلنی بنباح شدید، وکاد یهجم علی و یمز قنی .
ویعلم الله کم بکیت عندما خلوت بنفسی فی فراشی ، و کم بللت وسادتی بالد مع الستخین . ولما استیقظت فی الصباح ، رأیت أمتی منحنیه علی سریری ، وإلی جوارها «بیجوتی» لا تُبدی حراکا ، شم سمعت أمی تقول لی وهی تُمسلّد شعر رأسی :

- « د دافید " یا ولدی الحبیب ما بالك ؟ »

وعجبت في قرارة نفسي كيف تسألني أمتى مثل هذا السؤال ، فاستدرت إلى جانبي الآخر لكيلاتلحظ اضطراب شفتي ، فتعلم من اضطرابهما ما يخالج قلبي من شعور الألم . وبينما أنا على هذه الحال ، شعرت بيد أخرى لا هي يد أمتى ولا يد «بيجوتي» ، وإنما هي يد السيد «مردستون » تجذب إليها ذراعي ، ويقول صاحبها لوالدتي :

ــ « يا عزيزتي "كلارا" ما معنى هذا ؟ أنسيت نصيحتى ؟ عامليه في شيء من الحزم والصرامة . »

وكأن والدتى لم تستطع أن تأخذ بنصيحته ، فخرجت هي و «بيجوتي» من الغرفة ، و بقيت وجهاً لوجه مع السيد « مردستون » فقال لى :

- « اسمع يا <sup>«</sup> داڤيد "! أتعلم ماذا أفعل عندما أروِّض حصاناً أو كلباً ؟ » فقلت :

- « لا ، لست أعلم . » فقال :

- «أشبيعبُه ضرباً . . . أفهمت؟ فانهض إذن واغسل وجهك وانزل

معى إلى البيه و. » فامتثلتُ لأمره مكثرَهاً لا أعيى ، ولما نزلنا إلى البهو قال لأمتى:

ـــ « يا عزيزتي و كلارا " أعتقد أنه لن يضايقك بعد الآن ، فعى استطاعتنا إصلاح خلقه السيئ . »

ولو أن هذا السيد أفهمني واقعة الحال ، واستعمل معي قليلاً من الرقية واللطف لكان أسرني مدى الحياة ، ولكنه شاء أن يستخدم قوته وسلطانه في تأديبي ، وأن يُكرُرهني على طاعته ولوعن سبيل الملكق والرياء .

وفي مساء ذلك اليوم ، سمعنا صوت عجلات مركبة تقف عند باب الحديقة ، وتنزل منها الآنسة «مردستون» شقيقة هذا السيد ، فرأيتها تشبهه في سواد شعرها وقسوة نظرها ، وبعد أن نزلت من المركبة نقل الحوذي إلى المنزل حقيبتين لها كُتيب اسمها فوقهما بأحرف من نحاس ، فلما فرغت وفرغنا من التحيات ، التفتت إلى وقالت تخاطب أمتى:

\_ « أهذا ابنك يا نسيبي ؟ » فقالت أملى :

. « نعم . » فقالت :

\_ « إنى لا أحب الصبيان . »

فبلعت هذه التحية الكريمة من هذه الآنسة الزائرة ، ولكنها لم تكن زائرة بل جاءت تقيم معنا ، وبعد زمن وجيز استولت على جميع المفاتيح في الدار ، وأصبحت فيها الآمرة الناهية على رضيًى من أمى وطراعية .

ورأى القوم قبل أن يبعثوني إلى المدرسة ، أن يعنوا بتعليمي في البيت ، فكان السيد « مردستون » وشقيقته وأمى ، يحضرون الدروس التي يلقنني إياها المعلم في جو رهيب يملأني ذعراً ورعباً، فأين منه ذلك الجو البديع الذي تلقيت فيه دروسي الأولى ، وكنت أقرأ فيه لخادمتنا «بيجوتي» قصة التماسيح ؟ وكانت أمى كلما أغلق على الجواب عن سؤال من أسئلة المعلم ، وشاءت أن تساعدني في اقتناص الجواب ، هجم السيد وشقيقته عليها هجوم الذئب الضاري ، وأوصياها باستخدام القسوة ، وإلا نشأت جاهلا سي الخلق، وكان يتبع ذلك بعض صفعات يكيل كي إياها السيد « مردستون » أو شقيقته ، وأمى صامتة صمت الأموات ، تعلو وجنتيها حمرة الغضب الساكت . وعلى مثل هذا الجحيم كنت أقضى ساعات الدرس .

وازداد السيد «مردستون» وشقيقته صرامة فمنعانى أن أصحب الأطفال وأن ألعب معهم ، زاعمين أنهما لا يريدان أن يرميا بى إلى جوقة من الأفاعى لئلا تفسد أخلاق . وبقيت على هذا النظام مدة ستة أشهر تحوّل فيها مرّحى وانطلاقى إلى العبوس والتضجر والكآبة .

ومن حسن حظتى أن كانت غرفة المرحوم والدى تجاور غرفتى ، فأصبحت أتسلل إليها ، وأقضى فيها وقتاً غير قصير فى مطالعة الكتب الموجودة فيها ، وكان يستهوينى منها على الأخص كتب الرحلات ، فأتيت عليها كلها ، وكنت أتخياً نفسى وأنا أقرأ بعض المغامرات فيها ، أنى قائد سفينة ، وأن على القائد إذا غرقت سفينته أن يكون آخر من يغرق أو آخر من ينجو اعتزازاً بكرامته وعزة نفسه ، أمّا أنا فكنت قد فقدت تلك الكرامة والعزة في ظلال من يريد أن يسلبني شخصيتي ، ويفرض على "الطاعة العمياء، ويدخل في روع أمى أنى ولد" شاذ " الأخلاق سيتي الطباع .

وجاء اليوم الذي قرّر فيه القوم أن يُرْساوني إلى مدرسة من مدارس «لندن» ، فأوصلني السيد «مردستون» وشقيقته إلى المركبة ، دون أن أود ع أمي وحر ماني كذلك أن أحيى «بيجوتي» فسار بي الحوذي ينتهب جواده الأرض انتهاباً ، فما كادت المركبة تسير بي نحو نصف ميل ، حتى وقفت فجأة ، فتطلبعت حولي لأعرف سبب ذلك الوقوف المفاجئ، فلشد ما دهشت عندما رأيت «بيجوتي» تخرج من بعض الأسوار ، وتصعد إلى المركبة ، وتوسعي تقبيلاً ، ثم تُخر ج من جيبها الطويل كيساً ملوءاً بالحلوى فتدفعه إلى وتردفه بكيس صغير من النقود ، تضعه بين يدى ، ثم تعاود تقبيلي وتنزل من المركبة دون أن تنبس بينت شفة . وصلنا إلى «لندن» فقادني الحوذي إلى فندق لا أذكر أيسمتي «الثور وكان في الفندق رجل في انتظاري فأقبل على وقال :

: ما أأنت التلميذ الجديد؟» فقلت له :

ـــ « نعم يا سيدى . » فقال :

... « أنا أستاذ من أساتذة معهد " سالم " الذي تقصده . »

فتهييّبت هذا الرجل العاليم وكان اسمه «مل»، وسرتُ معه صامتاً، حتى بلغنا المعهد، فاستقبلنا عند الباب رجل بلدين كريه الوجه حليق الرأس ضخم العندُق، كأنه عندُق ثور، وكان ذا ساق من خشب، فأدار نظره في عدواً وسفلاً فلم تكلل تكلل النظرات لضآلة جسمى، ثم قادنى الرجل إلى قاعة الدرس، وكانت خاوية خالية فسألته عن التلاميذ فعلمت أنهم في عطلة واستمر يقودنى حتى بلغ بي إلى منتضدة عليها لافتة من الورق المقوى كتب عليها هذه العبارة: «حذار إنه يتعض » فتولانى الجزع، وصعدت فوق المنضدة ظناً منى أن في داخلها كلباً من الكلاب. وكان الاستاذ «مل» قدلحق بنا، فسألنى ماذا أصنع فوق المنتضدة فقلت:

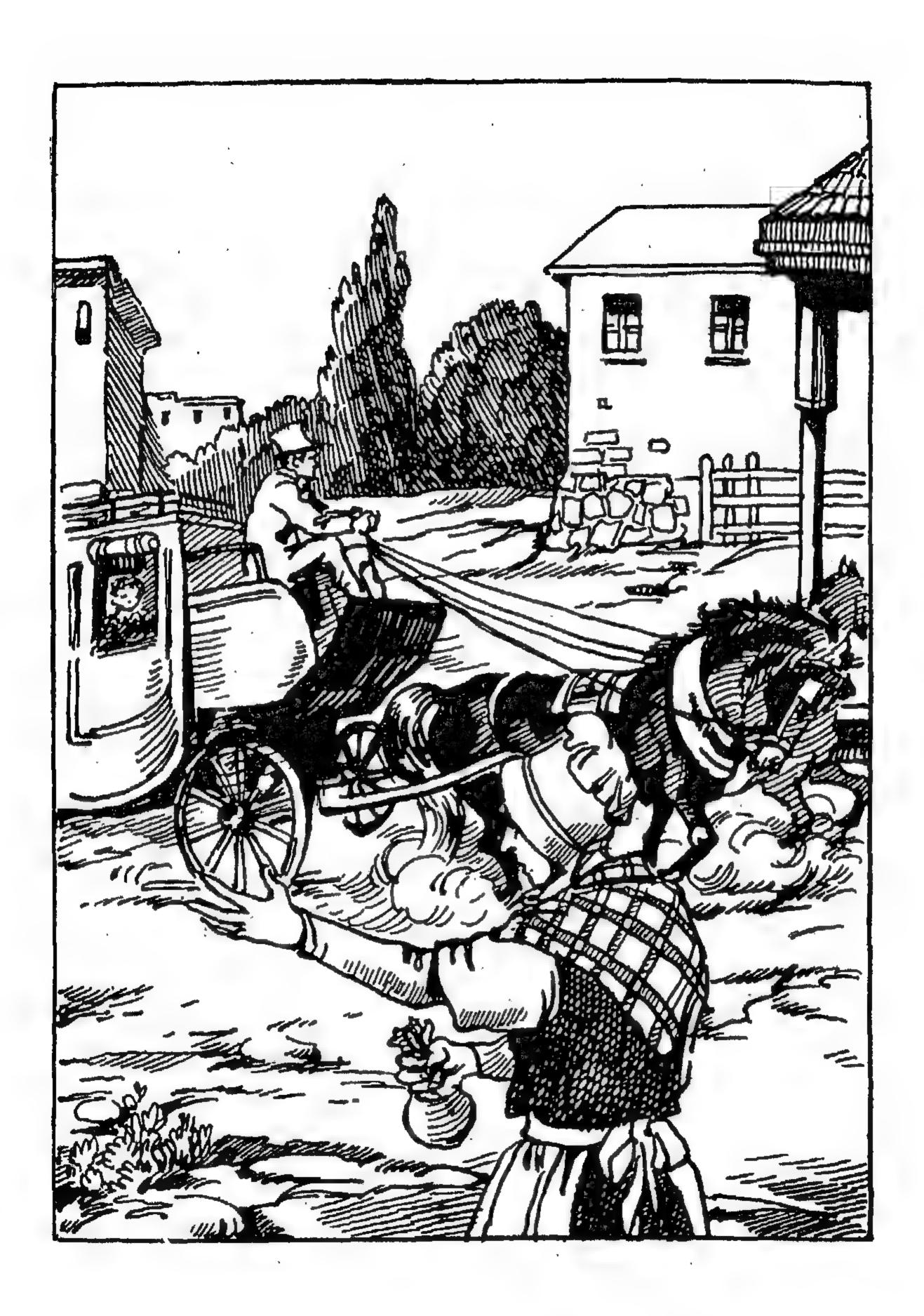
- « عفوك يا سيدى ، إنى أفتش عن الكلب . » فقال :

\_ « وأي كلب تفتيش عنه ؟ » فقلت :

\_ « الكلب العيضُوض . »

وأشرت إلى العبارة المكتوبة على اللا فتة الموضوعة فوق المنضدة ، فقال لى بلهجة خطيرة :

ـــ « لا يا أن كوبرفيلد " إنه ليس كلباً ، إنما هو غلام "صغير . لقد أمروني أن أربط هذه اللافتة على ظهرك . وإنى مضطر إلى تنفيذ الأمر على متضض منتى. »



فأنزلني من المنضدة ، وربط اللافتة إلى ظهرى ، ثم قادنى الرجل ذو الساق الخشبية إلى ناظر المدرسة وكان رجلاً أقرب إلى الوحوش منه إلى بني الإنسان ، فحد جني بنظرة قاسية ، وقال لى وهو يفرك أذنى : \_ « لى الشرف أن أعرف زوج والدتك السيد " مردستون " إنه رجل " حازم " عزيز النفس، وكلانا يعرف الآخر تمام المعرفة ، أفتعرفني أنت؟ » فقلت وأنا أتألم :

\_ « لما أشرُفْ يا سيدى بمعرفتك . » فقال وقد ترك أذنى :

\_\_ «سوف تعرفی ... سوف تعرف أنی رجل من التّتر ... ولن أتسامح أبداً فی أمر آمر به أو أنهی عنه .» فقلت وقد هبّت بی روح الشجاعة نه به أو أنهی عنه .» فقلت وقد هبّت بی روح الشجاعة نه به أو أنهی یا سیّدی ، ولكن ناشدتك الله إلا آمرت برفع هذه اللافتة عن ظهری . . . إنی نادم عمّا بدر میی نحو زوج والدتی . . . فأتوستل إلیك أن تأمر برفع هذه اللافتة قبل أن یعود التلامیذ . . . »

فزمجر زمجرة الوحوش. وهجم على "يريد أن يفترسني أو يريد تخويف ، فضي بى ذو الساق الحشبية إلى قاعة النوم ، فانطرحت على سريرى باكياً . وقضيت في تلك المدرسة عدة أشهر ، ولم أستفد كبير استفادة ، فأذنني للجو الرهيب المشبع بالقسوة والوحشية ، أن يفتح الأذهان لتحصيل العلم وصقال المدارك .

ولميًّا دنا موعد العطلة الكبرى ، كان جُلُّ ما أخشاه أن يحال بيني وبين

الرجوع إلى المنزل ومشاهدة أمتى الحبيبة ، ولكم أن تقدروا مبلغ فرحى وسرورى ، عندما نُبتَّثُ بالاستعداد للسفر إلى مسقط رأسى. يا للفرحة الكبرى! أأعود إلى منزلى وإن كنت أعلم أنه لم يعد منزلى ، ولكنى حسبى أن أكحل العين برؤية أمى ، ورؤية الأشياء التي ملأت فراغ طفولتى فلك المنزل .

وعندما عدت إلى مسقط رأسى ، ووصلت إلى باب الحديقة ، كنت أيمنس على الله أن لا ألتى أول ما ألتى وجه السيد «مردستون» أو وجه شقيقته اجتزت الحديقة ، ودخلت المنزل فشنس أذنى سماع صوت أمى وهى تغنى ، فرجعت بى الذكرى إلى تلك الأيام الجميلة التى كنت أنعم فيها بسماع غناء أمى ، وأقف أنا و « بيجوتى » منها مسروريس معجبين . ساقنى الصوت إلى الغرفة ، فتخطيّت عتبتها ، ورأيت أمى وحدها جالسة قرب الموقد، وهى ترضع طفلاً وتناغيه حتى ينام ، فناديتها بصوت خافت ، وسرعان ما خفت إلى وخففت اليها وتبادلنا العيناق والقبلات خافت ، وسرعان ما خفيّت إلى وخففت اليها وتبادلنا العيناق والقبلات

- « هذا أخوك یا " دافید " . . . قبل أخاك یا " دافید " . . . » وهجمت وفی غمرة من ذهولی وجمودی ، أقبلت علینا « بیجوتی » وهجمت علی کالحجنونة توسعنی تقبیلا " . . . ثم علمت أن السید « مردستون » وشقیقته قد ذهبا یزوران بعض الجیران ، وأنهما لن یعودا إلا فی ساعة و المحدود و

مم قالت لى وهي تُدنى يد الطفل من شفتي :

متأخرة من الليل ، فسررت غاية السرور ، وما كنت لأحلم بمثل تلك السعادة فألتى أمى و «بيجوتى » وحدهما بعد ذلك الغياب الطويل . تناولنا العشاء نحن الثلاثة معاً ، وأرادت «بيجوتى » أن تقوم بمهمة الحادمة فى ذلك العشاء ، غير أن والدتى طلبت إليها أن تجلس معنا وتشاطرنا الطعام . وبعد العشاء عُنييت «بيجوتى» بوضع الطفل فى متهده ، ثم اجتمعنا معاً نحن الثلاثة قرب الموقد ، وأخذنا نتناجى ونتجاذب أطراف الحديث ، و «بيجوتى » منهمكة فى تطريزها ، ثم سألتنى أن أقرأ لها فصلاً من قصة التماسيح ففعلت .

وفى نحو الساعة العاشرة خيل إلى "أن ريحاً باردة "قد عصفت بذلك الله الحو الهادئ الداف في المحبة والوداد، ذلك أننا شعرنا بباب الحديقة ينف تتح ، فعلمنا أن السيد « مردستون » وشقيقته قد عادا من سهرتهما ، فأوعزت إلى أمى أن أسارع إلى غرفتي لأن زوجها وشقيقته ليس من مذهبهما السهاح للأطفال بالسهرحتي تلك الساعة من الليل ، فنف ذت أمرها فرحاً مغتبطاً .

ونزلت في الصباح إلى غرفة الطعام ، وكان القوم هجتمعين فيها ، فحييت أمى ثم أقبلت على السيد « مردستون » وشقيقته وحييت تهما تحية طيبة ، فاستقبلتني الآنسة « مردستون » بتنهدة صادرة من أعماق صدرها وقالت تسألني :

\_ « كم من الوقت تطول العطلة ؟ » فقلت :

- ـ « شهراً يا آنسة ؟ » فقالت :
- \_ « منذ أي يوم ؟ » فقلت :
  - \_ « منذ أمس . » فقالت :
- \_ « حسن . . . لقد مضى منها يوم . . . »

وكانت فى صباح كل يوم ، تنزع من الروزنامة ورقة ، وهى تعد الأيام الباقية من العطلة ، وكان مزاجها يتمشى مع مرور الأيام ، فبدأت فى الأيام الأولى عابسة ، ثم أخذت أساريرها تتألق قليلا قليلا بعد الأيام العشرة ، وازدادت تألقاً فى الأيام القليلة الباقية من الشهر ، حتى انتهت العطلة وحان موعد الرجوع إلى المدرسة .

ومهما كان جو المدرسة بغيضاً رهيباً ، فقد أصبحت أوثره على جو المنزل في صحبة السيد « مردستون » وشقيقته ، وحسبي هذا الشهر الذي قضيته وشعرت فيه أن هو عميقة تفصلني عن ساكنيه ، ولقد يطول بي الشرح لو ذكرت كل ما لقيته من ترحيب زوج الأم وشقيقته ، فماكانا يدعان وسيلة من الوسائل إلا اتخذاها في سبيل تنغيص الحياة على ، وإنى لأذكر أنى دخلت مرة عرفة والدتى ورأيتها تلاعب طفلها الصغير ، ولم يكن عمره قد تجاوز بضعة أسابيع ، فأحببت أن أشاطرها تلك الملاعبة ، فحملت الطفل وشرعت أناغيه ، فسمعت صوتاً دو قى كالعاصفة العاتية يقول لأمى :

ــ « و يحك يا " كلارا "كيف تسمحين لهذا الغلام الشّرس بحمل هذا الطفل الوديع ؟ ! »

وكان صوت الآنسة « مردستون » فانتزعت الطفل منى انتزاعاً ، ورَجَعته إلى أى . وإنى لأذكر أيضاً ذلك اليوم الذى دخل على فيه السيد « مردستون » وعيناه تقدحان بشرر السخط والغضب ، وهو يقول لى مُتوعداً مهدداً :

- « اعلم أينها الغلام الطائش، أنه ليس من الكرامة أن تقضى أوقات فراغك مع الحادمة " بيجوتى " أفهمت ؟ وحذار أن تخالف أمرى ! » فطأطأت رأسى منذ عنا وحز في صدرى تنفيذ ذلك الأمر، فإن بيجوتى » الكريمة الوفية كانت لفؤادى البرد والسلام في ذلك الحو الحائق.





٣

مضى على رجوعى إلى المدرسة نحو شهرين، فد عيت ذات يوم إلى غرفة الزائرين، فهبطت إليها مسرعاً على أمل أن ألق « بيجوتى» قد جاءتنى ببعض الحلوى والهدايا، ولكنتنى دهشت كل الد هش عندما رأيت في تلك الغرفة الفسيحة، ناظر المدرسة جالساً إلى مائدة الطعام، يلتهم ما حنفلت به المائدة من فطائر وجبن وحلوى وإلى جانبه زوجته وقد بدت مفكرة مهمومة، فخفت إلى وأجلستنى على بعض المقاعد وجلست بإزائى وهى تقول:

- « إنك بعد صغير أن الأدافيد " فلا تستطيع أن تدرك تقلب الأيام

وحوادث الدهر ، ولا أن تعرف كيف تبطيغي المنيه على الاحياء فتصصيهم عن أحبـ أنهم ومعارفهم ، ولكنه أمر يجب أن ندركه ونعرفه . »

فحك قَاتُ فيها مذهولاً من هذا الحديث ، فاستأنفت هي الكلام وقالت :

ــ « عندما عُدُ ت من العطلة ، أكان جميع ذويك في سلامة وعافية ؟ . . . أكانت والدتك تشكو من عيليّة من العيليل ؟ »

فاضطربتُ من رأسي إلى أخمص قدمي عند سماعي هذا السؤال، أما هي فعادت تقول:

ـ « يَعَـِزُ على يَا "داڤيد" أن أخبرك أن والدتك مريضة . . . . مريضة جداً . . . »

فغشیت عینی سحابة من الکآبة حجبت عنی وجه محدثتی ، ثم شعرت بالد مع ینهمر من مآتی ، و شعبها تستأنف حدیثها وتقول :

ــ « إنها في خطر جسيم . . . »

فأدركت الحقيقة الرهيبة ، وعلمت أن أمى قد ماتت ، وأنى أصبحت يتيم الأبوين في هذا العالم ، ثم علمت أيضاً أن أخى الصغير قد مات أيضاً بعد موت أمى بلحظات قلائل .

جرى هذا الحديثُ القاتل ، وناظرُ المدرسة لم ينفكُ يزدرد طعامه، و يطالع الصحف التي أمامه ، فعطفتْ على وجته كل العطف ، وتركتي معها طول النهار ، وأنا أبكى مرة وأهيم في بوادي التفكير مرة أخرى ، وهكذا دوالياك . وفي اليوم التالى ، تركت المدرسة وعدت إلى المنزل ، فاستقبلتني « بيجوتي » على خطوات منه ، وما إن رأتني حتى انفجر الدهم من محاجرها ، ثم كتمت حزبها وعبراتها ، وتناولت يدى وسارت بى إلى المنزل وهي تكاد تتكلم همساً كأنها تخشى أن توقظ الأموات .

دخلتُ البه و ، فرأیت السید « مردستون » جالساً إزاء الموقد ، یکفکف عبراته علی فقیدته الغالیة المستجاة فی غرفتها ، ورأیت شقیقته جالسه الله می شهدة مزدحمة بالرسائل والأوراق ، تکتب وهی مستغرقة فی الکتابة ، فد "ت إلى اصبع یدها محییه" ثم قالت :

ـــ «ستتولتى «بيجوتى "عمّا قليل أخـُدْ قياسـاك لملابس الحـِداد ... هل أتيت بجميع أمتعتك وقمصانك من المدرسة ؟ » فقلت :

\_\_ « نعم یا سیدتی . »

وكان هذا الحديث كل العزاء الذي التمسته لي هذه الآنسة القاسية القلب الغليظة الكيد .

ولما تم تشييع الجنازة ، أقبلت على « بيجوتي » وأنا في غرفتي ، تحد "ثني عن أمي الحبيبة وعن أخي الصغير "فقالت لي :

ـــ « فى الليلة الأخيرة قبّلتّنى أمّلك العزيزة وقالت لى: "يابيجوتى! إذا مات طفلي أيضاً ، فأرجو أن تضعيه بين ذراعي ، وأن يدفنونا معاً

( وهذا ما فعلت ، لأن الطفل المسكين مات بعدها بلحظات ) هما ارجو أن يصحبنا داڤيد إلى مقر نا الأخير ، وقولى له إن أمّه فى ساعتها الأخيرة قد باركته ودعت له بالخير " . "

وسكتت « بيجوتي » وأخذت تمير ً يدها بيرفق على رأسي و وجهى ، ثم عادت إلى الكلام وقالت :

- « وكان الليل في هزيعه الأخير ، فطلبت منى الفقيدة العزيزة أن أروى ظمأها بجر عة ماء، فلما شربت غمرتنى بنظرة حلاوة من عينها الجميلتين . . . وعند الفجر قالت لى : " عزيزتى بيجوتى قربينى منك (وكانت أشبه بخيال نحيف) وضعى ذراعك تحت عنتي ، واقتلبينى إلى ناحيتك . . . إن وجهك يبتعد منى وأود أن أراه . " فقمت بكل ماطلبت ، فأسندت عند ثذ رأسها إلى ذراع بيجوتى خادمتها القديمة ، ولفظت أنفاسها وأخفت كما يُعدى الطفل الرقضيع . »

فكنتُ أسمع هذا الحديث وقلبي يتفطّرُ حزناً وأسّى ، ويشكر لمحد "تي عنايتها وسهرها على أمى العزيزة . ولم يمر يوم " واحد " على تسوارى أمى و واء تراب القبور ، حتى أنذرت الآنسة « مردستون » خادمتنا الوفية «بيجوتى » بوجوب انقطاعها عن العمل في المنزل ، وأمهلتها شهراً . أمّا أنا فما من كلمة واحدة تشير إلى شأني ومستقبلي ، ولقد تشجعت ذات مساء وسألت الآنسة « مردستون » متى أعود إلى المدرسة فأجابت أني لن أعود إليها

وأقفلت باب الحديث ، فما استطعت ولا استطاعت « بيجوتي » أن تعلم شيئاً عما يُضمره لى هذان الشقيقان .

وجلسنا ذات مساء نتحد"ث معاً فى المطبخ ، ويدور حديثنا على مصير كل مناً فقالت لى :

\_ « لقد بحثتُ طویلاً یا عزیزی عن عمل لی فی هذه المدینة ، فا وقعتُ علی شیء یلائمنی . » فقلت لها :

ــ « وماذا تنوين أن تفعلي ؟ » فقالت :

\_\_ « سأضطر في الغالب إلى الرحيل عن المدينة ، والسكان مع شقيقي على شاطئ البحر ، وأنت تعلم أن المكان ليس بعيداً ، فسوف أزورك مرة كل أسبوع ما دمت أنت هنا . »

فخف ف هذا الوعد عن صدري هما كبيراً ، واستأنفت « بيجوتي » حديثها قائلة:

— « سأقضى عند شقيقى أسبوعين حتى أستعيد قواى ثم . . . ولكن اسمع . . . لقد دار بخلك خاطر من الحواطر . . . من المحقق أن السيد « مردستون " وشقيقته ليسا في حاجة إليك ، فلعلهما يسمحان لك بالرحيل معى . »

ولاحت في هذه اللحظة الآنسة «مردستون» فعحد ثنها «بيجوتي» عن هذا الحاطر في شجاعة منقطعة النظير فقالت:

\_ « سواء " رَحل معك أم بتى معنا ، فسوف يضيع وقته عبثاً ، فهو غلام " كَسول " بليد لا يُر جى منه أى نفع كان ، ولسوف أحمل أخى على قبول اقتراحك ولو إلى أمد قصير ، لأوف عليه عناء الاهتمام فى هذه الفترة بهذا الأبله الحامل . »

وعند انقضاء المهلة التي مُنصِحتها « بيجوتي» تركنا المنزل معاً، ورحلنا إلى قرية شقيقها ، ونزلنا على القوم الذين عرفناهم في تلك السفينة الغارقة في الرمال.

وفى أثناء إقامتى بين ظهرانى هؤلاء الكرماء ، زُفَّت « بيجوتى » إلى السيّد « بركيس » ، و « بركيس » هذا هو الحوذى الذى ركبنا مركبته فى مجيئنا إلى القرية ، وركبتها أنا غير مرّة فى ذهابى إلى المدرسة وإيابى منها ، وكان الرجل مغرماً بصاحبتنا « بيجوتى » ، وكان قد طلب يدها مراراً ، فقبلت به زوجاً فى هذه المرّة وزُفَّت إليه ، ولعلها رضيت بالزواج ليكون لها بيت تسكنه وتستضيفنى فيه عند الحاجة .

وغداة يومالزواج ، تركتُ السفينة الغارقة ، وذهبت أقيم مع العروسين ، فخصتصت بي « بيجوتي» غرفة صغيرة ، أويتُ إليها ووضعتُ الكتاب الذي يروي قصة التماسيح على رفُّ إلى جانب سريري ، فقالت لى « بيجوتي » يوماً :

- « یاعزیزی! هذه الغرفة غرفتُكمادمتُ أنا علی قبید الحیاة ، وسوف العزیزی! هذه الغرفة غرفتُكمادمتُ أنا علی قبید الحیاة ، وسوف

أعنتى بتنظيفها وترتيبها كل يوم ، كما كنت أفعل في منزلك ، واعلم أن لك في هذا المأوى غرفة خاصة بك سواء أقمت بها أم كنت في أقاصي الصين . »

فشكرتُها على رقيق عاطفتها، وأكبر ت منها هذا الوفاء، وكم وددت لو بقيت في هذه الغرفة الحقيرة ناعماً بمحبة « بيجوتي » وعنايتها ، ولكن المدة التي سمح لى فيها السيد « مردستون » وشقيقته بالتغييب عن المنزل كانت قد انتهت ، فاستعد ت « بيجوتي » لتصحبني إلى المنزل في مركبة وجها .

وصلنا إلى باب الحديقة فود عنى « بيجوتى» وود عثها وداعاً أليماً ، وحياً وحياً وحياً الله الله المناه المنزل الذي لم يتعد لله فيه أحد يعطف على ويحب في المنزل الذي المنزل الذي المنزل الذي الما المنزل الذي المنزل المنزل الذي المنزل الذي المنزل الذي المنزل الذي المنزل الذي المنزل المنزل المنزل المنزل المنزل المنزل الذي المنزل المنز

عشتُ فيه وأنا في شبه عزلة ، وكان الشقيقان يُم عينان في الجفاء والقسوة ، ويُشعراني بأني عالة عليهما ، وعلمت عرضاً أن السيد «مردستون » قد شبح المال في يديه ، فلا عجب إذا اتّخذ ضيق رزقه سبباً في التبرام منى ومن حياتي في كنفيه .

ولقد استدعاني يوماً إليه وقال لي :

-- « تعلمُ أيها الكسول، أنى لست غنيًا ، فإن كنت تجهل هذا الأمر فها أناذا أقيفُكُ عليه، ولا إخالُني قادراً أن أعيدك إلى المدرسة، فلا طاقة

لى بنفقاتها، وهـبشى قدرت عليها فما أراك أهلا للدراسة وتحصيل العلوم ...» فنظرت إليه مدهوشاً من هذا الحكم القاسى على ، وأخذت أتوقع أوخم العواقب من هذا الحديث ، فاستأنف كلامه وقال :

- « فلا أبد الله إذن من عمل تعمله فتكسب منه بعض ما يقوم أو الحبوب أملكه بأودك ... ولعلك سمعت ببيت تجارى لبيع أصناف البقول والحبوب أملكه في " لندن " أنا والسيد " كينيون " الحاضر معنا هنا ، وفي ذلك البيت التجارى كثير من الصبية العاملين فيه ، فستنضم إليه وتتكفل بنفقاتك».

ورحلت في صباح اليوم التالي مع السيد «كينيون» إلى «لندن» ، وانخرطت في سيلك العاملين في تلك التجارة ، وعُهيد إلى في الصاق البطاقات على زجاجات الشراب والصناديق التي تحتويها ، وكان يشاركني في ذلك العمل أربعة مُ غلمان يدل مظهرهم على فقر مُد قع وطباع لئيمة .

وفى مساء ذلك اليوم ، دعانى السيد « كينيون » وقد منى إلى رجل من أصدقائه يُد عنى « مكوبر » وأخبرنى أنه استأجر لى غرفة فى منزل هذا السيد فرح ب الرجل بى وتطوع أن يصحبنى إلى منزله لئلا أضل طريق إليه .

وأفهمني السيد «كينيون » أنه جعل راتبي ستة شلنات في الأسبوع ، ونقدني راتب أسبوع مقد مقد الأستعين به على قضاء ما أنا في حاجة إليه ، فدفعت من ذلك المبلغ ستة بنسات لنقل حقيبتي ، وستة بنسات أخري

ثمناً لعشائى ، ثم عدت سريعاً إلى حيث كان ينتظرنى السيد « مكوبر » فصحبنى إلى منزله .

واستقبلتنا فيهزوجته فألفيتُها سيّدة شاحبة اللون، هزيلة الحسم، قد بدأت الشيخوخة تتخطّها بخيوطها البيض، ورأيت البيت يعجّ بأطفال الزوجين، فقادتني السيدة إلى غرفتي، ويالها من غرفة صغيرة حقيرة تكاد تخلو لا من الرياش بل من ضروري الأثاث.

وعلمت بعد ذلك أن السيد « مكوبر » هذا كان ضابطاً متقاعداً من ضُباط البحرية ، وأنه يعمل الآن سمساراً لبعض البيوت التجارية ، غير أن رزقه من عمله كان ضئيلا جداً ، فكتشر دائنوه ، وضايقوه بزياراتهم ، ولكنه كان ينتهى هو وزوجته من مضايقاتهم إلى استئناف مرحهما وسرورهما والابتسام للحياة .

وسر في أن أعيش في صُحبة هذه الأسرة الفقيرة الحال ، الغنية بالابتهاج والأطفال ، وكنت أعود إليها في مساء كل يوم ، وكأنني على موعد مع راحة البال . ولا بند لى أن أشير هذا إلى أن السيد «كينيون » صاحب المحل الذي أعمل فيه ، كان يتقد رك في نشاطي ومواظبتي على العمل ، فيعاملني معاملة حسنة ، ويرى أنى من طينة غير طينة الزملاء الذين يعملون معى . ولقد كنت على عكلاقة طيبة مع هؤلاء الزملاء ، غير أنني كنت أحتفظ لنفسي بكرامتها ، فلا أمازحهم ولا أرفع حيجاب الجد بيني وبينهم ،

حتى إنهم ستمتونى «السيد الصغير».

وما كان هذا اللقب، ليمحو من نفسى الستام والشتجون من هذه الحياة التى أحياها ، ومن العمل الذى أزاوله ، مع ما كنت ألقاه من أسرة «مكوبر» من حقاوة ورعاية ، ولقد كتمت تلك الشجون فى نفسى، فلم أبح بها « لبيجوتى » فى الرسائل الكثيرة التى بعثت بها إليها وذلك أنهة منى وكبرياء ، وخوفاً من أن أثير آلامها .

وتراكمت الد يون على السيد « مكوبر » حتى شكاه الدائنون إلى القضاء ، فحكم عليه بالحبس ثم استأنف الحكم فخفقت عنه عقوبة السجن ، ونزلت إلى أسابيع قليلة ، استناداً إلى أنه مدين معسير ولكنه حسس النية . وخرج السيد « مكوبر » من السجن وقد اسود ت الدنيا في عينيه ، مع تلك الطاقة الكبرى من التفاؤل الذي كان يملأ جوانحه . واضطرت أسرته في أثناء تغيبه في السجن إلى أن تبيع القليل الباقي لها من المتاع والأثاث ، لتُبتي على رمقها ولا تموت من الجوع .

وقررت الأسرة بعد ذلك أن ترحل إلى مدينة « بليموث » حيث تقطن أسرة زوجة « مكوبر » فلعل الحظ الذي نقسَر منها في « لندن » يواتيها في تلك المدينة .

وضاقت بى الدنيا ، وفكرت طويلا فى أمرى ووددت لو استطعت أنا أيضاً الفيرار من المدينة ومن ذلك العمل الشائن الشاق الذى أزاوله ،

ولكن إلى أين المفر ؟ إلى أين ينطلق يتيم "صغير لا نصير له ولا أهل . فخطر ببالى أن أهجر العاصمة إلى الريف ، وألتجئ إلى العمة « بتسى » وهكذا كانت تسميها المرحومة أى ، ولكننى كنت أجهل عنوانها ، فسألت « بيجوتى » عنه ، وطلبت منها فى الرسالة نفسها أن تقرضنى نصف جنيه ، ووعلتها أن أفييها ذلك المبلغ فى موعد قريب إن شاء الله . وجاءنى جواب « بيجوتى » يفيض كالعادة بالشعور الرقيق والمودة الفائقة ، ويدلننى على عنوان العمة « تروتو ود » وقد شفعت جوابها بالمبلغ الذى استقرضته .

على أنى لم أستلف هذا المبلغ إلا ليعينى على نفقات السفر ، فراتبى الأسبوعى كان لا يكاد يكفيني .

حزمت حقيبتي وأودع تنها كل ملابسي ، ونزلت بها إلى الشارع ، فلقيت مكاريا يسوق حمارا ، فاتقفت معه على أن يوصل حقيبتي إلى مكتب مركبات السفر لقاء جُعل معلوم ، فتشد ها إلى بتر ذعة الحمار ، وركب هو وراءها وطار بحماره لا يتلوي على شيء ، وعتبتا حاولت أن أتبعه ، فالمسافة بيني وبينه كانت تطول ثم تطول حتى غاب عن بصرى فعلمت أنه لص أفاك قد سلبني الحقيبة وأن في راغم .

ركبتُ إحدى المركبات العامة ووجهتى القرية التي تسكنها العمة « تروتوود » حتى بلغتها بعد يومين ، واضطررت في ليلتين متواليتين أن

أقضى الليل كبقية المسافرين في أحد الفنادق المتناثرة على الطريق، وأن أتناول فيها شيئاً من الطعام حتى كادت نقودي تتنافل.

وبلغنا فى صباح اليوم الثالث القرية ، فنزلت أطوف فيها باحثاً مفتشاً عن مسكن عمدتنا الجليلة .

واتَّفَق لى بعد مسيرة ساعة، أنصادفتُ حوذيًّا ينظّف مركبته، فاقتربت منه وسألته هل يعرف منزل الآنسة « تروتوود » فحد ق قليلا في صفحة السهاء ثم انشّنتي إلى وقال :

- ـــ « "تروتوود " "تروتوود " ... أهي سيدة عجوز ؟ » فقلت :
  - ... « نعم . . . في مطلع الشيخوخة . » فقال :
- \_ « ومتعجرفة جافية الطِّباع؟ » فقلتوقد أيقنتُ من دقَّة الوصف :
- \_ « نعم . . . ربما كانت جافية الطبع بعض الجـَفاء . » فقال :

ـــ « السُلُكُ هذا الشارع ثم انعطف منه يميناً ثم شمالاً حتى يواجهك البخر ، فاسأل هناك عن منزل السيدة « تروتوود " يدلُّوك عليه . »

فشكرته ومضيت أجتاز الشوارع التي دلتني عليها ، حتى طالعني البحر. وكنت قريباً من دكان بقال فدخلته وسألت صاحبه عن منزل السيدة « تروتوود » فسمعت صوتاً عالياً يـُد وتي قائلاً:

ــ « من هذا الذي يسأل عن منزل الآنسة " تروتوود " ؟ » فتطلَّعت إلى جهة الصوت فألفيتُ صاحبته خادمة ً جاءت تبتاع



شيئًا من الأرز من دكان البقال فقلت لها:

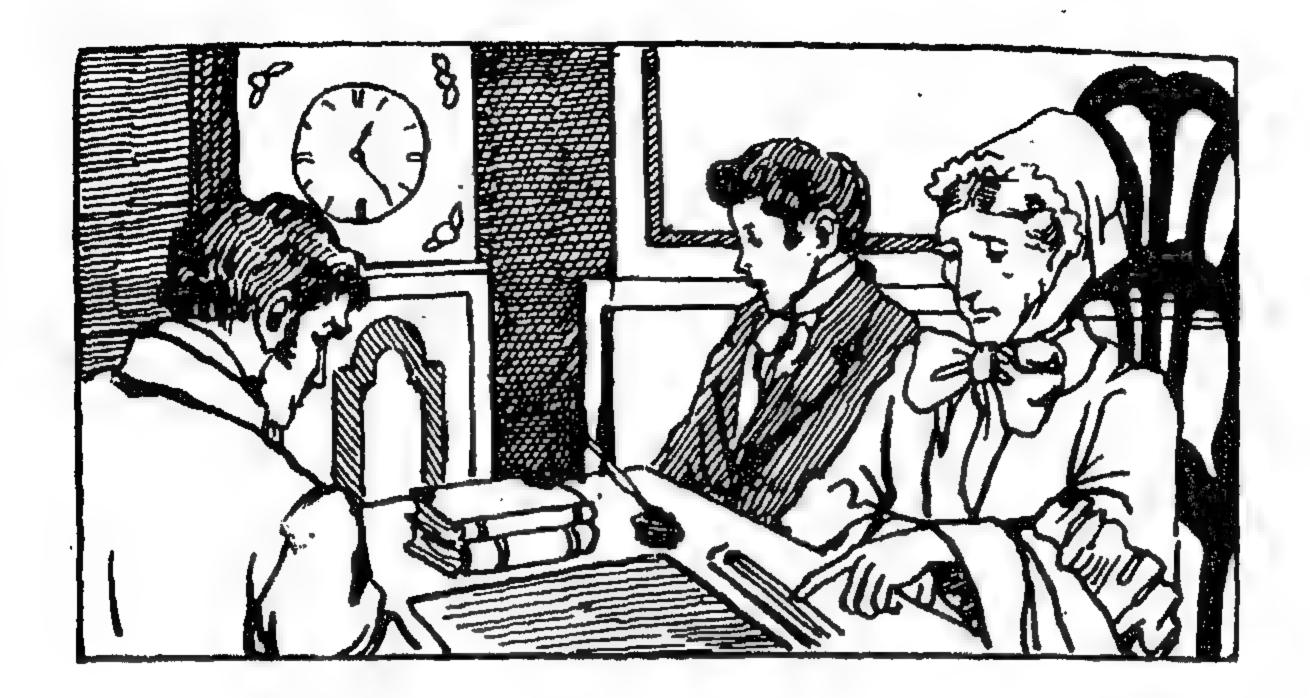
. . « وهل تعرفينه ؟ ١١ فقالت :

\_\_ ( وكيف لا أعرف منزل مخدومتى . . . ولكن إن كنت جئت تستنددى كفتها ، وتطلب منها أن تحسن إليك ، فعد عن هذا وعد من حيث أتيت . »

- فكرت قليلاً في كلام هذه الحادمة ، فرأيت أنها لم تخطى فيما جئت من أجله ، ولكن كتمت عنها غايتي وصحبتها إلى المنزل فأوصلتني إلى الباب ثم تركتني عنده ، وذهبت إلى باب آخر تدخل منه إلى المنزل وهي تقول لى :

\_\_\_ رهذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك ... وأنت وشأنك بعد هذا ! »





2

دخلتُ المنزل فما اعترض سبيلي أحد ، ووصلت إلى البهو الكبير فكان خالياً ، فاقتربت من النافذة وتطلّع ثتُ منها إلى الطبقة العليا من المنزل ، فرأيت في الشّر فة رجلا طكت الوجه ، رمادي الشّعر ، فابتسم لى وأخذ يغمزني بعينيه غسمزات لم أفهم مغزاها ، أتراه يرحب بى أم ينذرني بالخروج ، فاختتم غمزاته بأن انصرف ضاحكاً . فعدتُ أدراجي من البهو ، وخرجت من المنزل بعد أن استقر في ذهني أن العمية التي جئتُ إليها غير موجودة فيه ، ولكن ما كد ت أجتاز الباب ، حتى رأيته انفتح ثانية ، وخرجت منه سيّدة قد عصبت رأسها بمنديل ، ولبست في يديها قُفازاً ضمخماً منه سيّدة قد عصبت رأسها بمنديل ، ولبست في يديها قُفازاً ضمخماً

مما يلبسه البستانيون ، وارتدت برداء طويل ، وأمسكت بيمينها سكتيناً كبيرة ، فأدركت على الفور أنها العمة «تروتوود» فميشيتها المتعجرفة الحازمة ، هي المشية التي طالما حد ثنني عنها أمى يوم رأتها في منزلنا ، فلما رأتني أشارت إشارة غريبة والسكين في يدها وقالت لى :

- ( اذهب من هنا فما من صبية يدخلون هذا المنزل ! ) وتركتني وانصرفت إلى زاوية من حديقتها ، وهمتّ باقتلاع بعض النبات ، فدبت شجاعة اليأس في قلبي فتبعتها ولمست بيد مرتجفة طرّف ثوبها وقلت :

- « سيدتي عَلَمْ وَك . . . »

فاضطربت ونظرت إلى نظرة فاحصة، فأردفت أنا قائلا :

- « عمتى العزيزة . . . عفوك . . . » فقالت مدهوشة :
  - \_ « ماذا تقول ؟ » فقلت :
- « عملتى العزيزة . . . » فاستمرت تفحصنى فتابعت أنا كلامى قائلا ً :
- « أنا "داڤيدكوبرفياد" الذي حضرت تزورين أمّه يوم مولده ... فمنذ موتها وأنا شتى تاعس . . . لقد أغفلوا شأنى ، وضَنَّوا على بالتعليم، وأكرهوني على عمل لم أخلق له فهربت وجئت ألقاك . . . بعد إذ سُرق متاعى . . . »

وهذا خانتنى القوى ، فانسكبت الدموع من عينى . وكانت عمتى حتى هذه اللحظة أسيرة الدهمش والاستغراب ، فلما رأتنى أبكى ، أمسكت بى وأدخلتنى إلى البهو ، وأجلستنى فى أحد المقاعد ، ثم جاءتنى ببعض الشراب المنعش وهى تقول بصوت يدوى كالرعد :

\_ « آه يا إلحى! » \_

و بعد لحظة قصيرة ، استدعت الخادمة فأقبلت هذه مُهـرُولِـة " فقالت لها بصوتها الرنان :

وأخذت العملة تلذ رع الغرفة جيئة وذهوباً، ويداها مشتبكتان وراء ظهرها ، حتى دخل علينا رجل يضحك ، فإذا هو الرجل الذى لمحته فى الششر فة ، وأمطرني بغمزاته ، فقالت له عمتى :

- « أرجو منك أن تجد قليلا . . . فلست أعرف أرْزَن منك عقلا عندما تشاء . . . فعد إذن عن المُزاح ، وأهب بعقلك وحصافتك .» فعد فاستبدل الرجل بقسماته الضاحكة قسمات العبوس والصرامة ، فقالت له عمتي :

 فأخذ الرجل يُدير رأسه فى أنحاء النبهو كمن يريد أن يتذكر أمراً ثم قال :

۔ « داڤید کوبرفیلد " . . نعم . نعم . هذا صحیح ! » فقالت عمتی وهی تشیر اِلی :

ـــ « هذا ابنه . . . وإليك السؤال الذي أريد أن أوجتهه إليك . . . ماذا عساى أصنع بهذا الغلام ؟ »

فحك الرجل جبينه وقال:

\_ « ماذا عساك تصنعين به ؟ » فقاطعته قائلة :

- « أجل ماذا عساى أصنع به ... حلّار !! أريد منك رأياً تخميراً .» فنظر إلى السيد « ديك » نظرة عابرة وأطرق هنيهة ثم قال :

\_ « تبدئين أولا ً بالسهاح له بالاستحمام . » فصاحت عمتى صيحة الظافر المنتصر وقالت للخادمة :

- « و جانیت "! أوقدی الحمام . إن السید و دیك " لنعلی حق و صواب . »

وأدهشني أن أرى الرجل يتألّق وجهه سروراً من المديح الذي غمرته به عمتي ، وتخيّلته رجلاً لا يخلو من البلاهة ، ولكنني لم أستطع أن أفهم كيف يُقيم مثل هذا الرجل في منزل عمّتي .

وأنعشني الحمام فخرجت منه نشيطاً قوياً وجاءتني عملي بقميص من

6666666666666 2 N DDDDDDDDDDDDDDDDD

قمصان الستيد « ديك » فلبسته وإن يكن قميصاً فضفاضاً ، ثم رأيتها قد أعد تن لى بعض الحساء ، فجلست قبالتي وأنا أحتسيه .

ومهضت فجأة تنادى السيد « ديك » فأقبل على عَجَل ، فطلبت إليه أن يُصْغى كل الإصْغاء إلى قصتى التى سأسردها عليهما ، فأخذت أروى قصتى ، وكانت عمى طول الوقت تحدق فى السيد « ديك » تحديقاً شديداً ، وكلما هم الرجل بالابتسام ، قطبت حاجبيها وعبست فى وجهه ، فعاد يتصنع الجد . فلما فرغت من روايتى قالت عمى تخاطب السيد « ديك » :

\_ « والآن . . . انظر جيداً في وجه هذا الغلام ، فعندى سؤال سأوجهه إليك . » فقال السيد « ديك » :

- \_ « إنه ابن در دافيد » .» فقالت عملي :
- \_ « ولهذا أسألك ماذا تصنع به ؟ » فقال :
- \_ « ماذا أصنع بابن و داڤيد " ؟ » فقالت عملي :
- ـــ « نعم ماذا تصنع بابن « داڤيد » ؟ » فقال السيد « ديك » :
- \_ « آه ! ماذا أصنع به ؟ أضعه في الفراش . » فصاحت عمدي صيحة المنتصر الظافر :
- ... اعيد على على حق وصواب . . . أعيد ى السيد و ديك "لعلى حق وصواب . . . أعيد ى السرير ليستلقى إليه هذا الغلام . »

فأُعِدَّ السرير ، واستلقيت إليه بقية النهار ، ونمت الليل كله نوماً هادئاً ، وفي الصباح نزلت إلى غرفة الطعام فلقيتُ فيها عمَّتي مستغرقة في تفكير عميق ، فنبسَّهها دخولي الغرفة فصاحت عندما رأتني وقالت :

- ـ « لقد كتبت اليه . . . » فقلت :
  - ــ « إلى . . . » فقاطعتني قائلة :
- « إلى زوج أملك . » فقلت مضطرباً:
- ــ « أقلت له أين أنا يا عمّتي ؟ » فقالت وهي تهز رأسها :
  - « نعم . » فقلت متلعثماً :
  - « أو تدفعيني إليه يا عملي ؟! » فقالت :
  - « لستُ أدري . . . سنري . » فقلت يائساً :
- « يا إلهي . . . رُحْماك يا عمتي ولا تسمحي بأن أعود إلى السيد « مردستون " . » فقالت عمّتي :
  - « لست أدرى . . . سترى . سترى . »

وفى أثناء النهار حاولت عمتى أن تعرف رأيى فى السيد «ديك » فأثنيتُ على ظرَّ فه ورقة حاشيته فقاطعتني وقالت :

- « يقولون إنه مجنون مسلوبُ العقل . . . ويتلتَدُ لَى أن أعرف أنه مجنونُ مسلوبُ العقل و إلا ما تمتعتُ بصحبته ونصائحه منذ نحو عشر سنوات . . . إن السيد در ديك "حليني ولست في حاجة إلى أن أبيتن لك

نوع هذا الحلف . . . فلولاى لاعتقله أخوه و زجّه فى مستشفى الأمراض العقلية . . . إنه أبنّله متكبر . . . وأعتقد أن أخاه هو آتجنون . . . فلما حمّمي وطيس الشّجار بينهما قلت لأخيه إنه هو المجنون . . . وطلبت منه أن يرصد له راتباً يعيش منه وأن يقيم فى منزلى . . أنا لست أخشاه ولا أسىء معاملته . . . وها هو ذا مقيم معى وإنى لأراه لطيف المعشر حُلنُو الطّباع . . . أمّا آراؤه النيّرة فها من أحد يقيد رها قيد رها غيرى . »

وقع كلام عمتى من قلبى موقعاً جميلاً وهى تدافع عن المظلومين في شخص السيد « ديك » ، وعلم لت نفسى بأنها لن تكون معى أقل كرماً ورعاية منها مع هذا الغريب عنها ، فبدأت ، على طباعها الشاذة ، أشعر نحوها بالتجلمة والتعظيم .

وأقبل علينا في اليوم التالى السيد « مردستون » وشقيقته ، فرحبت بهما عمتى ، ونادت على الفور السيد « دياك » فجاء مسرعاً ووقف بين هؤلاء القوم وقفة طيرة ، كمن يريد أن لا تفوته شاردة ولا آبدة من حديثهم ، فاستهل السيد « مردستون » الكلام وقال :

\_ « لما تسلّمت رسالتك يا سيّدتى، رأيت من واجبى ومن فروض الإجلال لك . . . » فقاطعته العمّة وقالت :

ــ « أشكرك . . . لا تحسب حسابي . » فتابع السيد « مردستون » كلامه قائلا :

- ... أن يكين مجيئي إليك هو الجواب عن رسالتك ... فهذا الغلام الطائش الذي فرّ من أصحابه وعمله . . . » فقاطعته شقيقته قائلة : \_ « والذي تلوح على سيائه سمات طيشه وسوء أخلاقه . » فسنهسرها
- شقيقها وقال:
- ــ « لا تقاطعيني . . . إن هذا الغلام يا آنسة " تروتوود" قد سبب لنا متاعب جمية ، فهو غلام " ثائر متمرّد ، وكم حاولت أنا وشقيقتي أن نصلح المعوج من أخلاقه فما أفالحنا ... وها نبحن أولاء قد جئنا ننفض إليك جلية الأمر في صد ق وإخلاص . » فقالت عمتى بلهجة جافة : ـ « هذا كثير! » فقالت الآنسة « مردستون »:
- \_ « الوقائع تثبت ما رواه أخى ، فقد ألحقه بعمل جليل ولكنه هرب منه . » فقالت عمتي تخاطب السيد « مردستون » :
- \_ «لنبحث أولاً في هذا العمل الجليل ... فلو كان هذا الغلام ابنك، أكنت ألحقته بذلك العمل الجليل ؟ » فقالت الآنسة « مردستون » تجيب هي عن السؤال:
- \_ « لوكان هذا الغلام ابن شقيقي، لما كان تشرس الأخلاق سيتي السالوك! » فقالت عمتي:
- ــ « يا للمسكين ! أوكم يورَثْه أبوه أو أمه شيئاً؟» فقال « مردستون » : ... « كل ما تركه أبوه من مال ، كانت أمه قد أنفقته في سبيل



العيش قبل أن أتزوّجها . وكيفماكان الأمر فإنى على استعداد لاسترجاع هذا الغلام ، شرط أن لا يدخل أحد بيني وبينه ، فأصنع به ومنه ما أريد . »

فقالت عمتى موجدهة إلى السؤال:

- « وأنت يا "داڤيد " أترغب في الرحيل مع السيد " مردستون " ؟ » فتوسلت إلى عمين أن لا تدفعني إلى السيد « مردستون » وشقيقته فهما لا يحبانني ، ولقد ماتت أمي مقهورة أسيفة على ماكانا يُضمر ان لى من كراهية ، فالتفتت عمين إلى السيد « ديك » وقالت :

- « يا سيد " ديك " ماذا أنا صانعة " بهذا الغلام ؟ » ففكر السيد « ديك » قليلا " ثم قال مبتسماً :

- « اذهبی به إلی الحیاط ، وأوصی له علی بذلة جدیدة . » فصاحت عمتی صیحة المنتصر الظافر : ن

- « يا سيد « ديك "هات بدك لأصافحها . . . إن رجاحة عقلك وصواب رأيك أمر لا يقد ر . . »

و بعد أن صافحت عمتى السيّد « ديك» جذبتني إليها وقالت تخاطب السيّد « مردستون » :

- « إنى سأحتفظ بهذا الغلام . . . فإن كان على مثل الأخلاق التي زعمتم ، فسوف أحذو حذوكم في إصلاحه ، ولكنني لا أصدق التي زعمتم ، فسوف أحذو حذوكم في إصلاحه ، ولكنني لا أصدق

حرفاً مما قلتماه . . . مع السلامة يا سيّلدى . . . مع السلامة يا آنسة ! » وما كادا ينصرفان حتى هجمت على عمتى أعانقها ، وعلى السيّد « ديك » أصافحه .

وتوثقت أواصر الصداقة بيني وبين السيد « ديك » فكنا نخرج معاً إلى الحقول ، وأقضى أوقاتاً جميلة في صحبته ، ولم تحل صداقتي دون أن أحتفظ لعمتي بأكرم جميل في قلبي .

فرغنا ذات مساء من تناول العشاء، ودخلنا البهو نسسمُر فيه قليلاً فقالت لي عملتي :

ــ « على آن أعنني يا " داڤيد " بتربيتك وتعليمك، أيسرك أن تلتحق بالقسم الداخلي من مدرسة " كنتر برى " ؟ »

فسر فی هذا العدر ف وأجبت على الفور بنعم، وإن یکن قد ساءنی فراق عمتی والسید « دیك » علی أنهما وعدانی بأن یزورانی من حین إلی حین .

ويوم أوصلتني عمتي إلى المدرسة ، استقبلنا فيها فتى فى نمحوالحامسة عشرة من سنه ، أحمر الشعر شاحب اللون ، قلد انتثر النسمش فى خلد ينه ، ويكاد يخلو وجهه من شعر الحاجبين ، وتخلو جفونه من الأهداب ، وكان يرتدى رداء أسود ويربط قميصه بربطة عنق بيضاء فقالت له عتى :

- ـــ « هل السيّـد " ويكفيلد " هنا يا " هيب " ؟ »فقال بعد أن أشار بيده الشاحبة المعروقة :
  - « نعم يا سيدتى . إنه فى هذه الغرفة . »

ودخلنا على السيد « ويكفيلد » فرأيت معه صبية حسناء فى مثل عمرى ، فعرفت أنها ابنته وأنها تدعى « أنييس » كما علمت بعد ذلك أن الرجل مع اضطلاعه بشؤون المدرسة، يزاول بعض الأعمال الزراعية والمالية ويديرها لحساب موكليه، فعهدت عتى في إليه ، ثم ود عتى ، فشكرتها من أعماق قلبي على جميل رعايتها، ووعدتها أن أكون عند حسن ظنتها . وقضيت أياماً جميلة في المدرسة منصرفاً إلى تلقي العلم كل الانصراف، وكنت سعيداً جداً برعاية الناظر وبقضاء أكثر أوقات فراغى مع ابنته « أنييس » اللطيفة الجميلة . ولست أنسى كذلك « هيب » ذلك الفتى الشاحب اللون الأحمر الشعر ، فكنت كلما دخلت عليه فى غرفته رأيته مستغرقاً فى القراءة ، وكانت الكتب التى يقرؤها ضخمة الحجم فعلمت منه أنها كتب قانون وأنه يدرس الحقوق فقلت له يوماً :

- ـــ « إنك رجل عظيم يا سيد " هيب " . » فتبسم وقال :
- « كلا يا سيد " كو بر ڤيلد " فما أنا فى هذه المدرسة إلا خادم ينتسب إلى أسرة رقيقة الحال ، ولولا عطف ناظر هذه المدرسة وكرم . أخلاقه ، لما تمكّنت من هذه الدراسة التي ترانى منكبيًّا عليها . » فقلت :

- \_ « ستصبح يوماً محامياً أو وكيل نيابة أو وكيل أعمال . » فقال : \_ « إن شاء الله . » فقلت :
- « ومن يدرى لعلك تصبح يوماً شريك الناظر " ويكفيلد " أو وارثه من بعده! » فقال مبتسماً ابتسامة اليأس:
- هذا من رابع المستحيلات يا سيد "كو بر فيلد" فأنا كما قلت لك من أسرة متواضعة رقيقة الحال ، ومثل هذه المهنة لا يقبل عليها إلا أناس من بيئة معروفة ، ولا تنجح إلا بين أيديهم ، ومن يدرى فلعلك أنت تصبح يوماً شريك السيد " و يكفيلد " في أعماله الواسعة . " فقلت :

- « حقق الله ظنك يا سيدى . »

كنت طول أيام الدراسة ، أراسل « بيجوتى » مراسلة منتظمة ، فوقفتها على جميع أحوالى ، وأعدت إليها نصف الجنيه الذى كنت اقترضته منها ، ولم تُدُفّ عنى دهشتها من عمل عمتى وتصرفها الكريم بعد أنصورتها فى نفسها على هذه الصورة . ولقد أعلمتنى ذات يوم أن السيد « مردستون » وشقيقته قد هجرا المدينة وباعا أثاث المنزل ، فأبلغت عمتى النبأ فى بعض زياراتها لى . وكان السيد « ديك » كذلك يزورنى مرة فى كل أسبوعين ، فتعرف فى هذه الزيارات المتكررة على جميع من أود وأجل وأصاحب ، من ناظر المدرسة إلى ابنته « أنييس » الجميلة إلى السيد « هيب » المجتهد من ناظر المدرسة إلى ابنته « أنييس » الجميلة إلى السيد « هيب » المجتهد من ناظر المدرسة إلى ابنته « أنييس » الجميلة إلى السيد « هيب » المجتهد من ناظر المدرسة إلى ابنته « أنييس » الجميلة إلى السيد « هيب » المجتهد المجاهد .

واتفق أن دعانى مرة «هيب» إلى تناول الشاى فى منزله المتواضع الذى كان يعيش فيه مع والدته ، فبينا نحن نتناول الشاى ، وقد فتحنا الباب المفضى إلى الشارع ، إذا برجل يمر بنا ثم يدخل المنزل ويصيح :

- « أهذا ممكن ؟ السيد « كوبر فيلد " هنا ؟ »

ولم يكن هذا الزائر المفاجئ إلا السيد «مكوبر» فأقبل على "يحييني ويدهش من ذلك اللقاء ، فاستراح قليلا وخرجت معه إلى زيارة زوجته في الفندق ، فسرت بلقائي وحد تتني عن سوء الحظ الملازم زوجها ، وأنهما جاءا ليزورا المدينة ويقفلا راجعين إلى « بليموث»، وهكذا كان ...





٥

لستُ أدرى أكنت مغتبطاً أم حزيناً ، يوم آلهيتُ دراستى ، وحق على أن أغادر المعهد الذى تلقيت فيه علوى ، فقد كنت فى ذلك العالم لصغير ، الفتى الذى يسترعى الإنتباه ، ويحفونه بكل أنواع الرعاية ، ويقدرون أخلاقه ومواهبه حق قدرها . ولأن عز على مفارقة ذلك الفردوس الصغير ، لقد سرقى أن أخرج إلى العالم الكبير ، وأشعر أنى فيه رجل أحر مسؤول عما يفكر وعما يعمل .

تبادلتُ وعمتى الآراء فيما يختص بمستقبلى ، وبالعمل الذي أميل اليه ، وكان ذلك همها الأكبر منذ أن تركتُ المعهد ، حتى إنها قالت

لى ذات يوم:

- «مهما زاولت من الأعمال في عنينى و يعنيك أو لا "، أن تكون الرجل الحازم ، القوى الإرادة ، الموفور السلطان على نفسك وعملك ، فلو أن أبويك كانا على شيء من قوة الإرادة والحزم ، لتبد لت بهما الحال ، وكانا أقدر على مواجهة مصاعب الحياة . . . إنى أريد ك ذلك الرجل القوى الحازم . . . أفهمت ؟ » فقلت :

\_ « سأعمل بنصيحتك يا عمتى وأرجو أن أكون عند حسن ظنك . » و بعد مداولة ومشاورة التفتت إلى وقالت :

- « أرى قبل أن تختار المهنة التي تصبو إليها ، أن تقوم برحلة قصيرة في أنحاء الوطن ، فتزور مسقط رأسك ، وتلتقي بتلك الفتاة الغليظة التي عُنيت بعض العناية بتربيتك وتنشئتك . . . ماذا تسمى ؟ » فقلت : - « دو بيجوتي " . » فقالت :

\_ « " بيجوتى " . أجل " بيجوتى " وإنه لاسم أرقمى وأجمل من أن يكون علماً لخادمة ! »

وزود تني عمتى بصُرة من النقود ، مشفوعة بدعواتها الصّالحات ، فشددت الرّحال أولا عائداً إلى المعهد لأودع الآنسة «أنييس» وأباها الناظر ، وكان «هيب» قد التحق بكلية «أكسفورد» فذهبت ألقاه هناك ، ثم صحبته معى إلى زيارة «بيجوتى» وإلى الطواف بالمدن والقرى

التى رغبت فى مشاهدتها ، وعدت بعد مدة إلى عمتى وأنا فرح مسرور ملوء النه والنفس بالآراء والخواطر ، وعجبت كل العجب لما علمت أنها قد سئمت من صحبة السيد « ديك » فأمرته بمغادرة المنزل ، فاستوضحها عن السبب فقالت :

\_ « لم يَعَدُد على ما عهدتُ عليه من حَصافة الرأى وثُقوب الذهن ، وأصبح يُعُون الحزم في أن يطرد الحمير التي تُغير على حديقتي وترعي النبات فيها . » و بعد أن تناولنا العشاء في ذلك المساء ، وجلسنا معا إلى الموقد نصطلي ، التفت عمتي إلى فجأة وقالت :

\_ « أفكرت يا " داڤيد " فيما كنت قد اقترحته عليك من مزاولة مهينة المحاماة ما دمت قد أتممت دراسة الحقوق ؟ » فقلت :

ــــ « نعم يا عمتى . لقد فكــرت فى ذلك طويلاً وحد ثت عنه صديقى « . » . » . »

ر هذا ما يسرنى . »

\_ « ولكن مناك عقبة دون ذلك يا عمتى . » فقالت مستطلعة :

\_ « وما هي ؟ ».

\_ « لا بد من مبلغ من المال يدفع للمحامي الذي سأتمر ن في مكتبه . »

ــ « أعرف ذلك . . . إنه مبلغ ألف جنيه . » فقلت :

\_ «إنه مبلغ جسيم ياعمتي ، ولا أو د أن أحملك هذا العبء الثقيل بعدما

بذلت ما بذلت في سبيل تنشئتي وتعليمي . . . صحيح أنى ظفرت بالشهادة التي تبيح لى الانخراط في سلك المحامين ولكن ألا ترين أن أجر ب حظلي في غيرها من المهن توفيراً لهذا المبلغ الكبير ؟ » فقالت مندفعة :

- « إنى أعد "ك يا " داڤيد " ابنى بالتبنى، فأروتى هى ثروتك ، وأقصى أمانى فى الحياة هى أن أراك مو في الجحا سعيداً . . . وإنى لأذكر الثناء المستطاب الذى أثنى به عليك السيد " ديك " يوم فاتحته فى أمر انتظامك فى عيداد المحامين . . . وما من أحد غيرى يستطيع أن يقدر آراءه النيرة حق قدرها . . . إذن لقد اتفقنا . . . ستنخرط فى سيائك المحامين . . . وغداً سنذهب معا إلى النقابة لتسجيل اسمك فيها . . . »

وبكرنا فى صباح اليوم التالى فى الرحيل إلى « لندن » ولقاء الأستاذ « سينلو » وزرناه فى مكتبه فرحب بنا أجمل ترحيب ، وبعد مقد مة جميلة التفت إلى وقال :

- « إذن تريد يا سيّدى أن تنتظم فى سلك المهنة الشريفة . . . لقد أخبرت الآنسة " تروتوود " عندما زارتنى منذ أيام ، أن فى مكتبى مكاناً شاغراً لمحام ناشئ يقضى فيه مدّة التمرّن ، ويسوءنى أن أتقاضى منكما الرسم المقرر لمكتبنا وهو ألف جنيه ، وما كنت لاحته عليكما دفع هذا المبلغ لولا أن شريكى الاستاذ " جوركنس " مصر على تقاضى المبلغ ، فهو فى المسائل المالية قرم " عنيد . »

وبدا لى من كلامه أنه رجل "خبير" بشؤون الحياة ، ويعرف من أين تؤكل الكتف، ولما استأذناه فى الانصراف ، ود عنا حتى باب المكتب فى لطف زائد ومجاملة لانظير لها ، وكان هم ممتى بعد ذلك أن تدبرلى مكاناً أقيم به فى تلك المدينة الواسعة ، فأخرجت من جيبها قُصاصة جريدة تحتوى على إعلان عن مسكن للإيجار ، فذهبنا تواً إليه ، فاستقبلتنا فيه سيدة بدينة طافت بنا فى أنحاء المسكن ترينا محاسنه ونوافذه المشرفة على النهر ، ثم اختلت السيدتان معاً ، وتداولتا فى الشروط ، وعادتا إلى "وقد ارتسمت على وجه كل منهما علامات الارتياح .

بها فله! ماأج مل الحرية والاستقلال! وما أج مل أن ينعم الإنسان عماوى يستأثر به ويشعر فيه أنه سيد الكون وسيد حركاته وستكناته ... وما هي إلا أيام قلائل ، حتى تلقيت وأنا ذاهب في الصباح إلى

عملى ، رسالة من « أنييس » تذكر رلى فيها أنها تزور مكتب والدها فى « لندن » وتضرب لى موعداً للقاء فيه مساء ذلك اليوم . والتقينا فى الموعد

المضروب ، وبادرتها بالتحية التي اعتدت أن أحييها بها وهي :

\_ « مساء الحير يا ملكى الحارس . » فتبسمت وقالت :

ــ « إن صح أنى ملاكك الحارس ، فأود أن أحد رك من ملك السوء . » فقلت :

- « لعلك ترمزين إلى دو هيب "! » فقالت:

- « نعم . إنه يعمل الآن كاتباً عند والدى وينوب عنه فى كثير من أعماله فهو ذكى نشيط كنى ولكنه غير سليم الطويية . » فقات :
- « إنك تسيئين الظن به يا عزيزتي . . . وإلام تستندين فى الحكم عليه ؟ » فقالت :

- « إلى أسباب كثيرة ، هي في مظهرها تافهة ، وفي متخسرها كبيرة ألخطر ، ثم إن سلطانه عليك وتأثيره فيك هما مد عاة مخاوفي . » وكان في صوتها رنة من الحذر ملكت على مشاعري ، ثم استأنفت حديثها » وقالت :

... « قد تقول من فتاة عاشت حتى اليوم فى عزلة عن تيار الحياة الجارف ، فليست لدى القدرة إذن على سبر أغوار البشر ، والحكم على ما تنطوى عليه جوانحهم من خير أو شر ، واكننى ما إخالنى مخطئة فى شعورى وإحساسى ... »

فشمل وجه «هیب» فی قلبی سحابة "داکنة"، و رُح ت أفکر فی الأسباب الحفیة التی حملت « أنییس » علی تحذیری منه ، فقطع علی تفکیری ضوتها الحلو وهی تقول مستأنفة :

- « لستُ من الغلباوة بحيث أعتقد أن فى مقدور الإنسان أن ينتزع من قلبه عاطفة قوية وعقيدة راسخة فيه، ولاسيسما إذا كان لهذا الإنسان مثل عنصرك الطيب وسلامة نيتك ... وكل ما أطلبه منك أن تكون على

حذر في علاقتك بهذا الشاب ، وان تذكر انبي حذرتك منه . » وخضنا بعد ذلك في أحاديث منوعة ، ويشاء القدر في مستقبل الأيام أن يثبت لى أن « أنييس » كانت على حق في مخاوفها ، فقد شاء « هيب » أن يسدل ستاراً صفيقاً على أصله الوضيع ، فطغى وتكبر ، واعتد بمواهبه الفكرية ، وكان ديد ننه في الحياة العسف والجور والكبرياء ، حتى أصبح يسيء معاملة الناس بل معاملة أمه المسكينة ، فافترق عنها افتراقه من مخلوق يجلب له الحياء والعار .

وفي مقابلة أخرى أنهت إلى « أنييس » وهي تنتفض سخطاً وغضاً أن « هيب » قد أصبح شريك والدها ، فلما أبديت لها دهشتي من قبولها تلك الشركة بعد الذي تعرفه من أخلاق « هيب » ومطامعه وجبروته وضعة أرُومته ، قالت لى والأسف يملأ قلبها :

\_\_ « تعلم يا عزيزى " داڤيد " أنى وحيدة أبى ، وأنى أحبة حبًا جمًا ، ولا أتوانى عن القيام بأية تضمية مهما جلت وكبرت لأوفر له الطمأنينة وراحة البال ، وأفعم أيامه بالبهجة والمسرة . »

ساءنى أن أتلقتى من « أنييس » هذا النبأ ، وسرّح خيالى فى التضحية الكبرى التى قد تُقدم عليها إرضاء لوالدها ، فهممت أن أسألها عن مقدار تلك التضحية الكبرى فسبقتى إلى الكلام وقالت :

\_ « لقد ظل " يحيط والدى بمظاهر شتى من عنايته ومساعدته والسهر

على أعماله ومصالحه حتى وتدق به كل الوثوق، فأصبح لايقوم بعمل من الأعمال ولايتخذ رأياً من الآراء إلا بعد مشاورته والإذعان لرغبته . . . » فقاطعتها مدهوشاً مُغنضباً :

- « عجباً منك يا " أنييس " أتحذّريني من هذا الشاب ، ولا تحذّري نفسك منه ؟ » فقالت كاسفة البال :

- « قبلتُ كل هذا حبيًّا لأبى ، ولسوف أقبل بأكثر منهذا بـِرًّا به ربشيخوخته !! »

والتقيت عَرَضاً في بعض الأيام بالفتي « هيب » وكنت منذ حذ رتى « أنييس » منه قد تراخيت في لقائه ومود ته ، فحياني تحية الرجل الهاني السعيد ، وأخبرني أنه أصبح شريك والد « أنييس » وأنه الآمر الناهي في كل صغيرة وكبيرة من أعمال والدها وثروته ، فاستمعت له صامتاً حتى رأيته قد بلغ منتهى الجرأة والقيحة حين ختم حديثه وهو يقول :

- « وفى نيسى أن أشرف و أنييس " بطلب يدها! »

وافترقنا وأنا أرثى لحال « أنييس » وأستعيد في ذهبي ما كانت قد أنهته إلى من أنها لن تُحرَّجيم عن قبول أية تضحية مهما جلت وكبرت حبًا لأبيها ، فقلت في نفسي : « إن لم يكن هذا الزواج هو التضحية الكبرى فاذا تكون إذن التضحية . . . أمثل هذا الفتي الوضيع السيء الأخلاق الدميم الحكرة يكون زوجاً لمثل "أنييس" ملتكي الحارس ؟! »

وأخذت أقارن بين نذالة هذا الشاب وصفاء نفس تلك الفتاة المتلألئة بحب أبيها والبريه . . .

ومضت الأيام والأسابيع وأنا قائم بعملي في مكتب الأستاذين «سينلو وجوركنيس » وكانت عمّتى قد خصّصت بى مبلغ تمانين جنيها في السنة فضلاً عن إيجار السكن وبعض النفقات الأخرى . ودعاني يوماً الأستاذ « سينلو » إلى زيارته في منزله الريني ، وتلطّيف فوعدني بأن يصحبني إليه ويعيدني منه بمركبته الحاصة ، فعلمت من الأحاديث التي تبادلناها في أثناء الطريق أن له ابنة وحيدة تسمى « دورا » وأنها قد أتمت دروسها في بعض المعاهد الفرنسية ، ومالت إلى السكني في منزله بالريف.

وصلنا إلى المنزل واجتزنا حديقته الجميلة، ودخلنا البهو الكبير فاستقبلتنا فيه الآنسة « دورا » وسيدة أخرى فقال الأستاذ « سينلو » :

ـــ « عزيزتى "دورا " ويا حضرة الآنسة أقد"م لكمًا السّيد " داڤيد كوبرفيلد " . "

تم مال على وهو يقول مشيراً إلى السيدة الأخرى:

- « إن الآنسة صديقة ابنتي وموضع ثقتها . »

وبيناكنت أرد على التحية وشرف التعرف، سمعت صوتاً غير غريب

- « لقد سبق لي أن عرفت السيد وو كو برفيلد " ! »

ولم تكن صاحبة الصوت الآنسة « دورا » بل صديقتها الآنسة « مردستون » ، فقلت بعد أن زالت عنى عوارض الدهشة :

- «كيف حالك يا آنسة " مردستون " ؟ لعلك فى صحة جيدة ! » - « على أتم " صحة وسلامة ! »

- « وكيف حال السيد « مردستون " ؟ »

- « إن أخى فى أوفر سلامة وعافية . . . أشكرك . » فقال الأستاذ « سينلو » : - « يسرّنى أن أراك تعرف الآنسة « مردستون " معرفة قديمة ! » - « يسرّنى أن أراك تعرف الآنسة « مردستون " معرفة قديمة ! »

فقالت الآنسة « مردستون » بلهجة هادئة قاسية :

- « إن بيني وبين السيّد "كوبرفيلد " صلة " من النّسب . . . فقد عرفته قليلا " في طفولته ، ثم فرّقتنا الأحوال . » فقال الأستاذ « سينلو » يخاطبني :

- « لقد تفضّلت الآنسة " مردستون " فقبلت أن تكون رفيقة ابنتى - ورائدتها بعد إذ حرمت الأقدار ابنتى " دورا " حنان الأم وعطفها » . فحد قت فى الآنسة « دورا » أدرس حركاتها وسكناتها فخيلً إلى أنها لا تشاطر أباها رأيه فى أن تكون الآنسة « مردستون » صديقتها وموضع ثقتها ، ولقد نزلت من قلبى أكرم منزلة منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، وحر كت نبرات صوتها أوتار فؤادى فصارت أعز أمنية لى فى الحياة أن أظفر بيدها وأن تصبح زوجتى .



وكان موضعى إلى مائدة العشاء فى جوارها ، فنتعمت بحديثها وبصوتها الساحر الحلوالنّغتمات ، وأعجبت بكل حركة من حركاتها النبيلة الفتّانة . وانتقلنا بعد العشاء إلى البّه ونسمر فيه ونتحد ث ، وشغلت الآنسة « دورا » أغلب الوقت فى الغناء والعزف على آلة تشبه القيثارة ، فقضيت سهرة جميلة ممتعة لم تزدنى إلا شغفاً بالآنسة « دورا » وتعلقاً بجمالها ومواهبها . وعندما تفرقنا وذهب كل منا إلى غرفته ، استوقفتنى الآنسة «مردستون» عند باب العرفة التى استضافونى فيها ، وطلبت إلى أن تحد ثنى قليلاً فأصغيت إليها تقول :

- « لقد جمعتنا الأقدار بعد فيراق ، ومهما يكن من أمر الماضى الذى نحتفظ منه بأسوأ الذّ كريات، فلا إخالك إلاموافقاً على أن نسلل عليه ستار النسيان، ولاسيه أننا قد نتلاقى كثيراً بعد اليوم فى هذا المنزل أو فى غيره من منازل هذه الأسرة ، فلا حاجة بنا إلى أن نُذ كيى جمسًا البغضاء الكامن تحت رماد الأيام فى قلبينا ولا إلى أن نوفر للقوم أسباب الشاتة فينا . . . » فقلت :

- « إنى أوافقك يا آنسة " مردستون " على ما تقترحين ، واكن تنى أنى لن أنسى أبداً ما لقيته منك ومن أخياك من سُوء المعاملة ، وما سببها لأمى من حزن وكآبة . . . »

وتبادلنا التحية المؤدّبة ، وانفلت كلُّ إلى غرفته . ولمَّا لقيت الآنسة

« دورا » في الصباح تجول في أنحاء الحديقة سألتبي مستفهمة : \_ « أبينك وبين الآنسة «مردستون» صلة قر في وثيقة ؟ « فقلت تأفراً:

\_ « كلا يا آنسة . » وكأنما ارتاحت إلى جوابي فقالت:

رفيقة لى . أتكون مثل هذه العانس الكهلة الدائمة التدمر والشكوى ، ويقة لى . أتكون مثل هذه العانس الكهلة الدائمة التدمر والشكوى ، ويقة موافقة وموضع الثقة والوداد ؟ إن الأصدقاء والتدماء يحتارهم الإنسان هو نفسه ، ولا يتكل أمر اختيارهم إلى أخل غيره . . أفيجب أن أحرم مزية التصرف الحر إذا كان القياد والقاسي قاد حرمي حنان الأم ؟! ، فهززت وأسى هزات خفيفة تأميناً على كلامها ، وقضيت مهاد فهززت وأسى هزات خفيفة تأميناً على كلامها ، وقضيت مهاد ذلك اليوم ومساءه في ضيافة « دورا » وأبيها ناعماً بأوفر ما ينعم به المراسعيد من حديث طلى ، وزاد روحاني شهى ، مع أن الآنسة «مردستون » السعيد من حديث طلى ، وزاد روحاني شهى ، مع أن الآنسة «مردستون » ما كانت تفارقنا لحظة واحدة . . ومنذ ذلك اليوم أصبحت أتأني في المعيار وبطات العنق ، ولون القفقان ، وصنف القمصان والحذاء . .





٦

خطر لى ذات يوم أن أزور رفيقاً من رفقاء الدراسة يدعى «جاك»، كنت قد التقيت به اتفاقاً فى أحد الشوارع، بعد أن باعدت الأيام بينى وبينه، فقص على ما لتى من عنت الزمان وقسوته، ودلتى على عنوان مسكنه، ورجا منى أن أزوره لنستعيد معاً ذكريات الطفولة والجداثة. ولقد تبينت من الشوارع والأزقة الحقيرة التى اجتزتها للوصول إليه، أن الفتى لم يبالغ فى شكواه من بهخل الدهر وتقتيره عليه.

وقضيتُ مع رفيق الحداثة بعض الوقت نستعرض ذكريات الماضي ، حتى تطرّقنا إلى حديث الحاضر، فعلمت منه أن ضيق ذات يده حال

دون أن يلتحق بمكتب أحد المحامين ليقضى فيه مدة التمرين، فاضطر إلى الالتحاق بوظيفة كاتب في مكتب أحد وكلاء الأعمال ، إلى أن يفتح الله عليه فيد خر مبلغ الرسم المطلوب ، ولكنه يائس من الوصول إلى تلك النتيجة السعيدة .

وحد ثنى فيا حد ثنى به أن المرء إذا اعتبر بمصائب غيره هانت عليه المصائب ، وأخبرنى أن الأسرة التى تقطن الطبقة الأرضية من المبنى المقيم هو فيه ، أسرة "تتألّف من زوج وزوجته وعدد كبير من الأولاد ، وأن ربّ الأسرة لا يكاد يستطيع أن يقوم بأود زوجته وأولاده ، فقد تألّب عليه الدهر يحاربه حرباً ضروساً فى رزقه ورزق عياله ، ولاتراهم مع ذلك الا ضاحكين باسمين للحياة ، كأنهم منها على سعة ويسسر . فقلت للرفيق هاك بعد إذ سمعت حديثه :

- « كنتُ عرفتُ فيا مضى أسرة على مثل هذا النحوالذى وصفت ، فربسها كان يتعاطى الدّ لالة فى مختلف الأصناف ، ويزاول متباين الميهن ، ولكن لم يكن يظفر بالرّزق إلا قطرة قطرة ، وكان هو وجميع أفراد أسرته مع ذلك لا يتذه ترون ولا يتأفقون ، بل يقابلون عبسه الزمن ببسمة الرضى والاستسلام ، ولقد كنتُ أظن أنها أسرة لا نظير لها بين البشر ، وها أنت ذا تحد ثنى عن شبيه لها ونظير . » فقال « جاك » :

- « لوعرفت ربّ هذه الأسرة وحدّثته لأمّنت على كلامى، ولرأيته

أفقر وأظرف من رب الأسرة التي تحد ثني عنها ، فوالله ما رأيت السيد ومكوبر " مرة وهو يضحك و يمزح ، على ضنتكه وضيق ذات يده ، الا التمست من حاله أبلغ العيظات والعيبر ، على الرضى والقناعة والإيمان بالله .» فقلت له مدهوشا :

ـــ « أتقول ً إنه يدعى " مكوبر " ؟ إن الرجل الذي أعرفه هو أيضاً يدعى " مكوبر " . . . . »:

ولم أكد أتم كلامى حتى قُرْع البياب، ودخل منه جار الرفيق، وكان قد جاء هو وزوجته يتفقَّدان شؤون صاحبي فصحنا معاً:

ـــ «.أهلاً وسهلاً بالسيد " مكوبر " وزوجته ! » وأضفت أنا ثلاً .

- « ليس فى الدنيا إلا "مكوبر" واحد رضى الحلق كبير النفس...» وأقبلت عليه أصافحه وأصافح زوجته مصافحة "حارة" ، وكان سرورهما بلقائى لا يوصف ، وعندما استفسرت من الزوجة عن أحوالهما ، أخبرتنى أن زوجها يتعاطى الآن الدلالة على الثمار ولكنه عمل لايدر عليه إلا أقل من الكفاف .

وتركتُ القوم بعد فترة قصيرة، وود عنهم وعدتُ إلى منزلى، فطالعتنى فيها فيه رسالة من « بيجوتى » تستعى إلى فيها زوجها « بركيس » وتخبرنى فيها أنها فادمة إلى « لندن » لقضاء بعض الشؤون، فشق على مصابه ها واستقبلتها

بعد أيّام قلائل معزياً وعدنا ذات يوم إلى مسكنى ، فدهشت كلّ الدّ همش إذ وجدت فيه عمّتى والسيّد «ديك» . وكانت عمّتى جالسة فوق تل من الحقائب في حين كان السيد «ديك» واقفاً بجانب عدد من الصناديق الصغيرة فتلت صائحاً :

\_ « ما هذه المفاجأة السارة يا عمتى العزيزة! »

وتبادلت وإياها العيناق والقبلات، ثم صافحت السيد « ديك » مصافحة طويلة . أما « بيجوتي » فوقفت ذاهلة من ذلك اللقاء الغريب ، وعلى ذلك النحو الشاذ ، ولكنها نفضت عنها الذهول واقتربت من عمتى والسيد « ديك » تحييهما .

و بعد صمت قصير التفتت إلى عملتي وقالت في جد وخطر:

- « دافيد " هل اكتسبت من يداً من الثقة بنفسك ؟ » فقلت :

\_ « أرجو ذلك يا عمتى . » فقالت وهي مقطّبة الحاجبين :

... « أواثق أنت مميًّا تقول ؟ » فقلت :

\_ « أعتقد أنى جد واثق . »

فنظرت إلى نظرة طويلة وقالت:

\_ « أتدري لماذا تراني جالسة فوق حقائي ؟ » فقلت :

ــ « كلا يا عمتى . » فقالت :

\_ « لأن هذه الحقائب هي كل ما بتي لي في هذه الحياة . . .

ويسوءنى أن أنهيى إليك يا عزيزى أن الدهر قد رمانى بالدهمار والحراب، ففقدت كل ما أملك . »

فلو أن عاصفة انقضّت على المنزل ، وكنسته إلى النهر الجارى تحته، لما كانت أعنف ولا أشد أثراً في نفسي من هذا الدي سمعته . ثم تابعت عمرتني كلامها وقالت :

- نعم يا عزيزى " داڤيد " لقد فقدت كل شيء إلا ما جمعت في هذه الحقائب والصناديق ، وإلا المنزل الصغير في الريف وقد عرضته للإيجار . » ثم التفتت إلى « بيجوتي » وقالت :

– « دبتری لنا أمکنه نقضی فیها هذه اللیلة توفیرا للنفقات ، وغدا سنتدبتر أمرنا . »

فهالني وقع الكارثة ، ورثيتُ لحال هذه العمّة الطيبة القلب العنيفة المظهر ، فاقتلعتني من وُجُومي حين سمعتها تقول لي :

- «على الإنسان أن يتحمل تقلُّب الزمان بشجاعة وصبر يا ولدى ،
 وعليه أن يواجه المحمّن بغير ما جزع ولا انخذال .»

فنظرتُ إلى السيد « ديك » فوجدته ساهماً حيناً وباسماً حيناً آخر ، كمن لا يدرى بمدى الكارثة التي أحاقت بعمتي ، ثم أفقتُ من ذهولى ورأيتُ من واجبى أن أظهر التجلُّد والشجاعة ، وأن أرطسب خاطر عمتى وأهون عليها وطأة الفاجعة .



لم يغمض لى جَفْن فى تلك اللّيلة اللّيلاء، وأنا مؤرّق ساهد، حتى إذا طلع الفجر ارتديت ملابسى فى خفة ورشاقة ، وتسلّلت من المنزل، وشرعت أطوف بالشوارع وأذ رّعها شارعاً شارعاً، وذهنى هائم فى مهامه التفكير إلى أن حان موعد الذّهاب إلى العمل ، فتوجّهت إلى المكتب واستأذنت الاستاذ « سينلو » فى الدخول عليه لأفاتحه فى أمر مهم ، وكنت قد قررت أن أطلعه على الكارثة التى حلّت بعمتى وأن أطلب إليه فسخ عقد العمل المبرم بينى وبينه، على أمل استرجاع المبلغ الذى نقد تنه إباه عمتى وقدره ألف جنيه .

دخلت عليه فحييته وبادرته قائلاً:

ــ « يعزُ على يا سيّدى أن أنهى إلياك أنى تلقيت من عمّتى أنباء سيئة . » فقال غير حافل :

- « أرجو أن لا تكون قد أصيبت بداء الفالج! » فقلت:

- « لم تُصَبّ يا سيدي بداء ولاعلة ، وإنما أصيبت بخسارة فادحة في مالها ، فأصبحت لا تكاد تمتلك شيئاً . » فصاح الاستاذ مدهوشاً : - « إنك تدهشي يا " داڤيد " ! » فقلت :

- « إن ما أقوله هو الحقيقة بعينها . . . وله ذا جئت أسألك يا سيدى أن تتفضّل على في محنتنا هذه بفسيخ العقد المبرم بيننا عن مدة التمرّن في مكتبك ، واسترجاع المبلغ المدفوع ولو مخفوضاً منه بعض الشيء، فعمتني

أحق الآن منى بهذا المبلغ، والله يعلم كم يكلّفنى هذا الطلب، فمستقبلى كله معقود عليه . »

واجهت الأستاذ بهذا الكلام وأنا أعلم أن تنفيذ مثل ذلك الطلب سيحرمني المضي في طريق المحاماة ، بل سيرميني بعيداً عن « دورا » ويقفل بيننا باب اللقاء . ففكر الأستاذ «سينلو» قليلا ثم قال :

- « لو كنتُ وحدى المتصرف في الأمر لأجبتك في الحال إلى مطلبك ، ولكن هناك شريكي الأستاذ " جوركينس " ولا إخاله يقبل مثل هذا الطلب . »

فذهبت إلى الأستاذ « جوركينس » وعرضت عليه أمرى ، فرفض كل الرفض، وما كنت لأتوقع منه غير ذلك ، فمهمة هذا الشريك ، على ما فهمته فيا بعد ، هي أن يرفض كل ما يحيله عليه شريكه من مطالب لا يريد تلبيتها .

وخرجت من المكتب في هم من مناهي منه منه منه فقابلت في طريق «أنييس» فأخبرتني أنها علمت بمجيء عمتى إلى « لندن » فهى ذاهبة لتحيتها ، فسرنا معا إلى المنزل ، وفهمت منها في أثناء الطريق أن عمتى بعثت إليها برسالة قصيرة تنبئها فيها أنها أصيبت بمكروه ، وأنها راحلة إلى «لندن». دخلنا المنزل فألفيت عمتى وحدها ، فحية يناها وجلسنا إلى جوارها ، فأخبرتها عما سعيت من أجله فابتسمت وقالت :

- « إنى فخورة " بك يا " داڤيد " ولكنى كنت أوثر أن لا تحاول تلك المحاولة حتى لا أكون عقبة " كأداء في طريق مستقبلك . . . والآن استمع لى يا " داڤيد " . واستمعى لى يا عزيزتى " أنييس " أخبركما بأسباب الكارثة التى منيت بها : »

وشرعت عملتي تقص علينا قصتها وتقول:

- « كنتُ أستغل " ثروتى فى أول الأمر فيا أملك من مزارع ، وكنتُ قد عهدت فى إدارتها واستغلالها إلى وكيلى أبى " أنييس " فاقترح على يوماً أن أبيع كل ما أملك من مزارع ، وأستثمر مالى فى التسليف على الرهون ، فجنيتُ من ذلك ربع الأبأس به ، ثم فكت تلك الرهون وأصبع المال متوافراً فى يدى ولا أدرى كيف أستثمره ، فاشتريتُ به كله دون استشارة وكيلى عدداً ضخماً من أسهم شركة جديدة من شركات مناجم الفحم ، وعللت نفسى بالربح الجزيل وفيق مامنت ثنا به الإعلانات الضخمة التى نشرت عن هذه الشركة الجديدة ، وكنوز الأرض التى سوف تستغلها ، فاتضح لى بعد قليل أن الأرضين التى اشترتها الشركة ، الكوارث بين المسهمين ، وذ هب المال ضياعاً ... هذه هى قصتى وإنها الكوارث بين المسهمين ، وذ هب المال فيا فلا نعود إلى الحديث عنها . . . » لقصة مفجعة ، ومن الخير أن نطويها فلا نعود إلى الحديث عنها . . . » ورأيت الفتاة « أنييس » شديدة الإصغاء والانتباه لكلام عمتى ،

بل رأيتها فى بعض اللحظات تضطرب اضطراباً خفيفاً ، ويُمستقم لون وجهها ، غير أنها عادت إلى سكونها وصفاء وجهها قبل أن تفرّغ عمّتى من روايتها ، وأغلب الظن أنها خشيت أن يكون والدها سبب نكبة عمّتى ، لأنه وكيل أعمالها ومدير ثروتها . فلم أنمالك بعد سماعى تلك الرواية الأليمة إلا أن أقول :

- \_ « ولكن يا عمتى علينا أن ندبس أمر معاشنا . » فقالت :
- « حَسَّبُنا المورد الذي يأتينا من إيجار منزلي في الريف، فقد يغل علينا مئة جنيه في العام . » فقلت :
- « أبعد عزّك الباذ خ ياعمّى تكتفين بمثة جنيه فى العام ؟ حبّـذا لو . . . » فقاطعتنى مغضبة وقالت :
- « حبدًا لو ماذا ؟ إيباك أن تفكر في الانخراط في سلك البحرية أو الجندية أو الالتحاق ببعض الأعمال التافهة . . . لقد أردت أن تكون عامياً و يجب أن تصبح محامياً . » فاشتركت « أنييس» في الحديث وقالت :
- \_ « أعندك بعض أوقات الفراغ يا « داڤيد" ؟ » فقلت : \_ « عندى كثير من أوقات الفراغ ، فالعمل في المكتب لا يستغرق \_
- وقتی کله . » فقالت « أنييس » :
  - « ألك ميل " إلى الأعمال الكتابية أم تأنف منها ؟ » فقلت :
- « لا آنف من أى عمل شريف كان! » فقالت « أنييس » :

- « لعلم تذكر مدرساً قديماً في مدرستك هو الأستاذ " سترونج "؟» - « أذكره جيداً وأذكر أنه كان منهمكاً في إعداد معجم في اللغة اللاتينية . »

- « لقد هجر التدريس وجاء يقيم " بلندن " ليتفرّغ لمعجمه ، وقد طلب من والدى أن يبحث له عن شاب يعاونه فى الأعمال الكتابية ، وتكفيه من تلك المعاونة ساعتان فى الصباح المبكر وساعتان فى المساء من كل يوم ، وأعتقد أنه سوف يئسسر عاية السرور إذا كان ذلك الشاب المعاون أحد تلاميذه القدماء . . . وهكذا يعود عليك ذلك العمل ببعض المال » . فصفيّقت طرباً وأقبلت على « أنييس » أشكرها وأقول لها جذلان فرحاً :

- « ألم أقل لك يا " أنييس" إنك ملكى الحارس ؟ ! . . . . » وقبل أن تنتبس عمتى ببينت شفة ، قرع الباب ودخل منه والله «أنييس» يصحبه الشاب « هيب » وكانا قد قدما لزيارة عمتى وتحيتها ، بعد إذ عرفنا أنها في « لندن » .

وبدا لى والد « أنييس » رجلاً قد بدأت الشيخوخة تدب في أضلاعه ، وتفقده ما عرفته فيه من صلابة الرأى وصواب الحكم ، في حين بدا لى « هيب » وهو واقف للى جانبه أنه عصاه التي يتكي عليها ، والعينان اللتان يرى بهما ، والذهن الذي يصرف الأمور بـوحـيه ، فتذكرت كلام

« أنييس » عن هذا الشيطان الذي استولى على إرادة أبيها بله التصرف في شروته .

ورد"ت عملى التحية بأحسن منها ، وقالت تخاطب والد « أنييس » :

- « لقد تدهورت بي الحال يا سيدي ! » فقال والد « أنييس » :

- « يشق على يا سيدى أن أعرف هول النكبة التي أصابتك ، فشي أنى أشاطرك الأسى على ما فقدت . »

وسبق «هيب» عمتى إلى الكلام فقال وهو يحدجني بنظراته:
- « ليس المال مو كل شيء في الحياة يا سيدتى ، فالمرء بمواهبه وصفاته لا بماله . »

وأدركتُ أنا من هذا التعريض مبلغ ما فيه من صَلَّف، وكأنه أراد أن يقول ني إن مواهبه وصفاته هي التي تجعله أهلا لأن يطلب يد «أنييس»، غير أن عتى لم يعجبها هذا الكلام فقالت له بلهجة جافة صارمة:

ر ومن ذا الذي زَعَم منا أن المال هو كل شيء في الحياة ؟ إن الله قد قسم المواهب بين عباده فلا تظنن أنه سبحانه وتعالى قد خصاك منها عالم يخص به غيرك . » فقال « هيب » وقد كظم غيظه :

\_\_ « عفواً يا سيدتى ما قصدت للى إساءتك ولا إلى إثارتك ، وإنما قصدت مواساتك . » فقالت له بلهجتها الجافة نفسها :

. « شكراً لك . »

وبهض والد « أنييس » بعد قليل وبهض معه « هيب » يريدان الانصراف فاستأذنت « أنييس » والدها في البقاء فترة قصيرة أخرى مع الآنسة « تروتوود » والسيد « داڤيد » فسمح لها ولم يستطع « هيب » أن يوعز إلى والدها بغير ما رغبت فيه الفتاة ، فخرج معه يتعشر بأذيال الخيبة .

وقامت عمتى إلى بعض شأمها ومشيت أنا و « أنييس » إلى النافاة نسر ح النظر معاً فى الأفق البعيد ونحن ساكتان ، والتفت اليها بعد حين فرأيت عينيها مغرورقتين بالدموع ، فكفكفتهما ثم أخذت تحد ثنى عن « دورا » وتسهب فى الثناء على جمالها وكمالها ، وتلتى على تلك الفاتنة التى سحرتنى أضواء من صفاء نفسها وطهر سريرتها .





٧

لاأكذب الله إن نكبة عمتى قد هد ت ركني وقلبت أحلامى رأساً على عقيب، غير أنني آليت على نفسى أن لا أظهر لعمتى في مظهر الجاحد العاق ، ففض لها السابق على يقتضيني أن أعمل آناء الليل وأطراف النهار، في غير ما ملل ولاسأم ، لأثبت لها أنى الفتى المقدام الذي لا يخيفه العمل الشاق . كان على أن أحمل فأس الحط اب، وأشق لى طريقاً في غابة المصاعب التي تكتنفني أشجارها من كل جانب ، وتسد على السبل .

كنت على مثل هذا العزم عندما سرت في أصيل اليوم التالي إلى الما على مثل هذا العزم عندما سرت في أصيل اليوم التالي إلى والما على المالي ال

منزل الأستاذ « سترونج » ولحت فى أثناء السيّر بيتاً صغيراً للإيجار ، تحيط به حديقة منمنمة ، فذكرت « دورا » وتمنيت على الله أن يجمعنى بفاتنتى « دورا » ولو فى مثل هذا المنزل الصغير ، فهناءة الزوجين فى الحياة مبّعشها القلب لا القصور المرددة ولا فاخر الرياش، ثم صدمتنى الحقيقة الرّاهنة ، فتابعت مسيرى إلى منزل الأستاذ « سترونج » فاستقبلنى أحسن استقبال ، ورحب بى خير ترحيب ، وسره أن يرانى فتى يافعاً بعد إذ عرفنى طفلاً صغيراً .

و بعد هذه المقد من الترحيب والتأهيل التفت إلى جاداً وقال:

- « إن كلمتك العاجلة التي بعثت إلى بها أمس ، وذكرت لى فيها أنك تود معاونتي في أعمالي ، قد أدخلت على قلبي سروراً لا يوصف ، فما زلت أذكر رضي أخلاقك ، وأدبك الجم ، ولكن هناك أمراً يشغل بالى يا عزيزى " داڤيد " ، أفليس حراماً أن تشغل ربيع حياتك بعمل لا يدر عليك إلا مئة جنيه في العام ؟ » فقلت له:

\_ « إن هذا المبلغ يضاعف موردنا يا سيّدى الأستاذ . »

ثم رویت له نبأ النكبة التی أطاحت بعثمتی ، وكأن ضمیره لم یستر سع الا عندما علم أنی اخترت المحاماة لی مهنة ، وأن العمل الذی سأقوم به عنده إنما هو عمل ثانوی لیس إلا . . . فضلا عن أنه عمل علمی بأسرنی و یستهوینی ، فارتاح الاستاذ لبتیانی ، واتفقنا علی أن أعمل عنده خمسة

أيام فى الأسبوع ، وأستريح فى يومى السبت والأحد ، وأن يكون العمل مقصوراً على ساعتين فى الصباح من السادسة إلى الثامنة وساعتين فى المساء من الثامنة إلى العاشرة . وقررنا بدء العمل فى صباح غد .

ومند صباح اليوم التالى ، أخذت أختلف إلى منزل الأستاذ «سترونج» في المواعيد المضروبة ، وكنت سعيداً بقضاء عدة ساعات في اليوم بعمل غير عملي الأصيل ، فكبرت في عين نفسي ، وتخيلت في كبرت أيضاً في عين « دورا » فقد كان خيالها لا يفارقني في غدو ي ورواحى ، كأنه يطلب مني المزيد من الجهد في سبيل الفوز بها شريكة لحياتي .

وتقاضتني حالى الرّاهنة أن أقتصد في النفقات ، فأضربت عن شراء الأغذية الفاخرة، وعن استعمال الصابون المطيّب والماء المعطّر، وبعت بعض ملابسي الفخمة ولو بخسارة ، فما وجدتها تتفق وحياة التقشيف التي أحياها .

وكنتُ مع كل هذا أتوق ُ إلى شغل بعض ساعات أخرى من فراغى بعمل جديد ، فذهبت يوماً أزور رفيق الدراسة الفتى «جاك» فسألته أن يدلّنى على السبيل الذى أستطيع به أن أنشر فى الصنّحف مداولات البرلمان، فثبطّ عزيمتى وقال لى لابـُد" لذلك من معرفة الاختزال ، ويصعب على المرء أن يـُلـم" بهذا العلم قبل مضى سنتين أو ثلاث سنوات ، وصرفنى عن هذه الغاية . أما أنا فما رأيتُ فى هذه العقبة إلا شجرات جديدة من عن هذه الغاية . أما أنا فما رأيتُ فى هذه العقبة إلا شجرات جديدة من

غابة الحياة ، يجب أن أحطمها بفأس الجهد والعمل ، لأصل بعدها إلى « دورا » فشكرت صديقي وودعته وقد ضمّمتُ في قرارة نفسي أن أبدأ بتعلم الاختزال على الفور ، فمضيت إلى بعض المكتبات ، واشتريت كتاباً في هذا الفن ، وأخذت في كل ساعة من ساعات فراغي ألتهم أصوله وقواعده ، حتى بدأت ألم به ، فأخذت أتمرّن على تطبيقه في ساحات المحاكم ، فأختزل المرافعات وأعود إلى المكتب لأكتبها ثانية باللغة الفصحى المعروفة ، ولكنها كانت أقرب إلى اللغة الصينية منها إلى اللغة الإنجليزية، فعرفت أي جهد يتطلب منى تعلم فن الاختزال على غير أستاذ. وفي إبان هذا الجهد والجهاد ، تلقيت رسالة من السيد « مكوبر » يخبرنى فيها أن الحظ قد بدأ يبتسم له ، وأنه كان على يقين من أن الحظ سوف يبتسم له يوماً ، وينبئني أنه وأسرته سيغادران العاصمة أو بابل الحديثة كما سمّاها ، وسيقيمان في قرية نائية من قرى جزيرتنا السعيادة ، وسينهض هناك بعمل يتهفق ومواهبه ويدر عليه أخلاف الرزق ، ويطلب إلى في ختام تلك الرسالة أن أسعده بزورة نتبادل فيها تحية الوّداع عشيّة يوم الرحيل .

وفي الموعد الذي ضربه لى كنت أنا ورفيق الدراسة « جاك » في منزل السيد « مكوبر » نحييه ونحيي زوجته وأبناءه ، ونتمني لهم التوفيق والهناءة في مستقرهم الجديد . وبعد أحاديث متشعبة قالت الزوجة :

\_ «كنتُ على يقين من أن القدرسيبسم يوماً لزوجي ويتقدر مواهبه حق قدرها .. » وعقب السيد «مكوبر » على كلامها فقال في مترسعه المعتاد ولهجته الباسمة التي لا تفارقه :

- « إن القُفّاز الذي رميتُه في وجه المجتمع ، قله تلقّاه صديقنا "هيب" هذا الرجل الكريم النفس ، الثّاقب الذهن ، الذي يتقنّد ر قييم الرجال فعمّا الرجل أن أكون وكيله في تلك القرية التي سنشد إليها الرحال غداً ... صحيح أنه لم يجعل لى راتباً ضخماً ، ولكنه وفتّى عنتى جميع الديون ، وأنقذني من ارتباك مالى " ، ولسوف أرهن له ذكائي ونشاطى وأجعلهما في خدمته . "

فكر رنا أنا وصديقي « جاك » الدعاء له ولأسرته بتحقيق أقصى الأماني، وانصرفنا وفي نفسى أكثر من سؤال عن هذا القدر الذي جمع « هيب » إلى « مكوبر » .

واستمر تسحياتي الجديدة على النحو الذي ذكرت ، وكان من حسن الحظ أن عملي كانت قد استأجرت المنزل الذي أقطن فيه لمدة سنة ، ودفعت أجرة السكن سكفا ، ولم يمض من تلك المدة إلا أشهر قليلة ، ولم تشأ عملي أن تعتمد على مورد السيد « ديك » ، فقد عز ويعز عليها أن تكون مدينة لأحد . ولما كان منزلي لايتسع لكل هؤلاء الهابطين عليه ، فقد استأجر السيد « ديك » غداة وصوله إلى « لندن » منزلا بالقرب

من منزلي ، يقيم فيه ليلاً ، وينضم إلينا نهاراً .

وجاء اليوم الذي رأت فيه «بيجوتي» أن تعود إلى قريتها ، فأوصلتها للى مكتب السفر ، وانتظرت حتى أخذت مكانها من المركبة العامية ، فقالت لى والدّموع تتلألاً في عينيها :

- « الآن يا عزيزى " داڤيد " أود عل وأستودعك الله ، وأرجو أن تعلم أنك إذا احتجت إلى بعض المال في أثناء تمر نك على المحاماة فأحق من يقرضك إياه هي خادمتك العجوز "بيجوتي ". » ثم همست في أذني قائلة: - « ويوم تتزوج الآنسة "دورا" فأبلغني حتى أحضر وأرتب لك منزل عرسك . . . هذا إذا سمحت لى بذلك . »

أي حُلم هذا الذي تحد أنى عنه «بيجوتي» ؟ إنه الحلم الذي تلاشي واضمحل في يقظة النكبة . لقد ارتبط قلبي وقلب « دورا » منذ اللحظة الأولى برباط الحب ، وتعاهدنا بعد ذلك على الزواج ، وتررنا أن ننتظر الفرصة السانحة لنرفع الأمر إلى أبيها ونظفر برضاه ، فالتقاليد الإنجليزية تحتم الحصول على رضى الوالد وموافقته . كان هذا قبل أن تضاب عتى بكارتها ، وكنت قد تريث في إبلاغ « دورا » بنبأ الكارثة متعليلاً عما قد تفاجئي به الأيام من رأى موفق ، ولكن عبثاً ترييش وانتظرت ، فحالى لا تسمح لى بالزواج ، ووالد « دورا » لن يرضى أن تزف ابنته إلى فقير مد قد قد مد الله المداهد الله المناهد الله فقير مد قد عد الله المداهد المناهد الله المد المناهد المناهد

كان اليوم يوم ستبت، وكنت سألقى « دورا » فى الستهرة عند بعض الأصدقاء، فرأيت من واجبى أن أطلعها على حالى وأن أحيلتها من عهدها . والتقينا فى مساء ذلك اليوم ، وانتحيت بها ناحية ، وسألتها هل توافق على أن تتزوج شحّاذاً ؟ وتطلعت إلى بعينها الحلوتين مدهوشة مذعورة وعلمت أنى لم أكن كيسًا فى إبلاغها النبأ على تلك الصورة ، فالشحّاذ فى ذهن العذارى البريئات من مثل « دورا » لا يتمثّل لهن إلا رجلا مجعّد الوجه ، يرتدى الأسمال ، و عشى على عُكّاز ، فرددت على دهشتها وذ عرها وأنا أقول فى جد وأستف خ

\_ « یا عزیزتی در دورا " انی رجل هد الحراب رکنه! » هد الحراب رکنه! » فدمعت عیناها وقالت وهی تضطرب:

\_ « لا تكن قاسى القلب يا « داڤيد " ! » فقلت :

ـــ « عزيزتي " دورا " إنها الحقيقة بعينها ... وإن الواجب يقتضيني فَسَعْنَ عهد الحطبة بيننا . »

ثم رويت لها القصة بحدافيرها ، فلم تشأ أن تسمع ، ولا أن تفكر ، ولا أن تتدبر الأمر وتقرئى على مسلكى ، فاكتفت بأن تردد على مسمعى :

- « أنت قاسى القلبيا "داڤيد"! أنت قاسى القلب يا "داڤيد"!»
وعدت بعد تلك السهرة مشتّت الأفكار حزين الفؤاد ، فاستيقظت في الساعة الخامسة صباحاً ، كعادتى في نظام حياتى الجديدة ، ومضيت أ

إلى عملى عند الأستاذ « سترونج » ثم فى مكتب الأستاذ « سينلو » .
ومر على نحو من أربعة أشهر فى حياتى الرتيبة الموزعة بين العمل ودراسة الاختزال ، حتى رأيتنى قد ألمت بهذا الفن الإلمام الكافى ، فشرعت أذهب إلى مجلس النواب والشيوخ ، وألتقط خطب الأعضاء وأختزلها طبقاً للقواعد التى تعلمتها ، ثم أقاربها بما ينشر منها فى الصحف ، فإذا اختزالى صحيح ، وإذا فؤادى بهتز طرباً من هذا النجاح .

وشاهدتُ في أحد الأيام الأستاذ « سينلو » في رواق من أروقة مجلس النواب ، وقد استند إلى الحائط محتقن الوجه ، وهو يشير بيده إشارات غريبة ، فأدركت أنه مصاب بنوبة من نوبات الصداع التي تعاوده حيناً بعد حن .

ولشد ما عجبت في صباح اليوم التالى ، عندما ذهبت إلى عملى في مكتب الأستاذ « سينلو » أن أرى الكتبة والمحامين واجمين ساهمين ، فاقترب منتى أحدهم وقال :

- « يا للمصيبة الكبرى يا سيّد « كوبرفيلد "! » فصحت فيه مستفهماً وقلت :
  - « ماذا حَدَث ؟ أيّة مصيبة كبرى تتحدّث عنها ؟ » فقال :
    - « الأستاذ « سينلو "! » فضقت ذرعاً به وقلت :
      - « ما خطبُ الأستاذ " سينلو "؟ » فقال :



فشعرتُ أن الأرض تغورُ تحت قدمي ، فاستندت إلى ذراع أحد الزملاء ، فأجلسني على مقعد وفك عنتي ربطة العنق ، وأخبرني أن أستاذنا « سينلو » قد مات فجأة ليلة أمس .

وشيعت جنازة الراحل، وقدمت أصدق العزاء لابنته « دورا » ، وتولي شريكه الاستاذ « جوركينس » ترتيب أوراق الفقيد الحاصة وتنظيم شؤونه ، فبدا أن المسكين الراحل كان فى فوضى مالية لا مثيل لها ، فا كان يعرف ماذا يكسب ولاماذا ينفق ؟ واتضع أنه أنفق أموالا ضخمة فى الفوز بعضوية مجلس النواب ، وأنه ليس على شىء كبير من الثراء ، فلو صُغي موقفه ، ود فعت الديون التى عليه ، لم يبق للمسكينة « دورا » فلا أقل من ألف جنيه .

وتمتّ التصفية ، وبيع المنزل الريبي ورياش منزله « بلندن » ، واضَطُرّت « دورا » إلى مغادرة العاصمة والسّكت عند عمّة لها عجوز كانت تقطن في إحدى الضواحي .

وتقهقرت أعمال مكتب الأستاذين « سينلو وجوركينس » من سي الله أسوأ ، وضاق العمل فيه ، فأسفت كل الأسف على مبلغ الألف الحنيه الذى ذهب مع الربح ، دون أن أعوض عنه بتمرن واسع مفيد . الجنيه الذى ذهب مع الربح ، دون أن أعوض عنه بتمرن واسع مفيد . ورأيتني ذات يوم أسير في اتجاه منزل « أنييس » فلنخلته ، فخفت

« أنييس » لاستقبالي فرحة مستبشرة فقلت لها:

ــ « كيف حالك يا عزيزتى " أنييس " لقد مضى علينا زمن طويل لم نتقابل فيه . » فقالت ضاحكة :

- « لقد تقابلنا منذ أقل من شهر يا عزيزى " داڤيد "! » فقلت :
- « ربما . ولست أنسى أنى تعودت أن أبلخا إليك في الملمات ،
وأن ألتمس لديك الرأى الثاقب . » فتبسمت صامتة فقلت :

- « مع أنه لا يعوزنى الذكاء ولا صدق الحكم على الأمور ، ولكننى أشعر بالارتياح والرضى ، وبتخفيف أعباء الحياة عن كاهلى عندما أكون في حضرة مللكي الحارس . » فقالت :

ـ « كلّى آذان مصغية إلياك يا عزيزى « دافيد " . » ـ

فقصص عليها ماكان من أمرى وأمر « دورا » لمّا طلبت منها فسمخ عهد الحطبة ، ثم أخبرتها بالنكبة التي ألمّت « بدورا » في وفاة والدها وفقه دروتها ، وذكرت لها أنى مترد د حائر في الموقف الذي أقفه منها في هذه الأيام .

فغمرتني « أنييس » بنظرة طويلة تخنى وراءها ألف معنى ومعنى وقالت :

\_ « أرى أن تكتب إلى عمنها وتطلب منها أن توجبهك فهي تحل اليوم محل والدها . »

فأحست أنى تخفقت من عبء ثقيل كنت أرزَح تحته ، فود عنها شاكراً ، وعدت إلى المنزل فرأيت عمتى والسيّد « ديك » مستسلمين إلى مناقشة حاد ة فتركتهما وشأنهما وجلست أكتب الرسالة التي قررت أن أبعث بها إلى عمة « دورا » فلمنّا انصرف السيّد « ديك » إلى بيته ، أطلعت عمتى على ما جرى من حديث بيني وبين « أنييس» وقرأت عليها الرسالة التي كتبتها فوافقت عليها ، فأودعتها صندوق البريد وبيت أترقب وصول الحواب. وما هو إلا يوم و بعض يوم ، حتى جاءنى جواب العميّة تدعونى إليها لمباحثتى فيما تضميّنته الرسالة ، وتضرب لى يوم كذا موعداً لذلك ، وتخيرنى في أن أصطحب معى شخصاً من ثقائى ، فاقترحت على عمتى في أن أصطحب معى صديقتى « أنييس » فرضيت « أنييس » بذلك وكنا في الموعد المضروب في حضرة « دورا » وعميّها .

وارتأت عمّة « دورا » أن نترك للزمن تقرير مصيرى ومصير « دورا » ، على أنسها سمحت لى بتناول الغداء معهما في كل يوم أحد .

وخشيت « دورا » في بدء الأمر « أنييس » ولم ترتبح إلى لقائها ، ولكنها عندما تبينت من حديثها ما تكنه جوانحها من صفاء القلب والسبريرة ، مالت إليها وقالت لى وأنا أود عها :

\_ « ألا ترى معى يا " داڤيد " أنه لو كان الدهر حبانى بصديقة مثل " أنييس " لكنت اليوم أحسن فكراً وأثقتب رأياً ! »

فتبسمت أنا و « أنييس » وانصرفنا ، وكنت أتحرق شوقاً إلى الانفراد « بأنييس » لأعرف منها رأيها في « دورا » فأثنت عليها الثناء الذي ما بعده ثناء ، وأطرّ ت جمالها وفضائلها وسمو نفسها ، فازدادت « أنييس » سمواً في نظري ، وأكبرت منها هذا الحكم المتجرّد .

وعدنا إلى « لندن » وأوصلتها إلى منزلها ، وقفلت راجعاً إلى منزلى ، فنغص على حبورى كتاب كان في انتظارى ، وقد بعثت به إلى زوجة السيد «مكوبر» فقرأته متشنى وثلاث دون أن أستشف منه الحافز الأصيل السيد همكو بر » فقد ذكرت لى في كتابها أن زوجها لم يتعد الإنسان الدرح المغتبط الذي عرفته ، وأنه أصبح عابس الوجه ، مقطب الجبين ، يخشى عنها ما لم يتخشى عنها بالأمس من أمر متعاشه ورزقه وعمله ، ويقتر عليها في نفقات الأسرة ، وأنها تنهرع إلى طالبة منتى النصح والتوجيه في كارثتها هذه .





## λ

بلغت اليوم سن الرشد، فعمرى الآن واحد وعشرون ربيعاً ، وقله روضت هذا الوحش الضارى الذى يسمتونه الاختزال، وأصبح موردى منه مورداً جليلاً ، وغدوت واحداً من اثنى عشر مختزلا عهدت إليهم صحيفة من صحف الصباح فى أن يلتقطوا بالاختزال مناقشات البرلمان لنشرها فى الجريدة .

ولقد حاول صديقي « جاك » غير مرة أن يحذو حذوى فما استطاع ، وأقر لى بعجزه ، وأكتبى بأن يلتقط للجريدة بعض الأخبار ، فيقد مها إلى من هو أمهر منه في الصياغة ، فيلسمها الأساوب الصحفي الأثير .

غير أن موافاة الجريدة بالأخبار قد در عليه بعض الرزق ، فالتحق بمكتب أحد المحامين ، ووعده بأن ينقده الرسم المطلوب وقدره مئة جنيه ( ويختلف هذا الرسم باختلاف شهرة المحامى) على دفعات متوالية .

لم أكتف بالأعمال التي أزاولها ، فأوحت إلى عزيمتي ومطامحي أن أدخل باب التأليف ، فقرعته مرتجفاً خائفاً ، وأرسلت أوّل مقال لى إلى بعض المجلات فنشرته ، فتشجّعت وداومت على الكتابة ، فدخل على منها مورد لا بأس به ، وأصبحت جملة مواردي في العام ثلاثمائة وخمسين جنيها ، وإنه لمبلغ وحقّكم لا يُستهان به .

انتقلنا إلى منزل آخر ، وأقبلت « بيجوتي » لتُعنْنَى بتنظيفه وترتيبه . إن مهمة هذه المخلوقة أن تُعنْنَى طول العمر بالتنظيف والترتيب. لقد وعدت أن تسارع إلى هذا العمل يوم أنزوج « دورا » وها هى ذى أحلامى تتحقق ، فترضَى عمة « دورا » بزواجنا ، ويحين موعد اليوم العظيم فترزف و « دورا » إلى في محضر من الأحباب .

عشنا معاً هانيئين سعيدين، وإن حفت حياتنا ألف مشكلة من مشكلات الحدم والحياة المنزلية. وآثرت عمتى وعمتها أن لاتشاطرانا السكن، وأن تتركانا وحدنا عصفورين يتغنيان في جنية الحياة، وينتقلان من غصن إلى غصن ، وكنا نبحن الاثنين على جهل تام بمطالب الحياة المنزلية ، فاستبد بنا الحدم، وسرقونا ما شاء لهم الاستبداد والسيرقة ، وكثيراً ماكنت فاستبد بنا الحدم، وسرقونا ما شاء لهم الاستبداد والسيرقة ، وكثيراً ماكنت فاستبد بنا الحدم، وسرقونا ما شاء لهم الاستبداد والسيرقة ، وكثيراً ماكنت

أخلتف أنا و « دورا » فى الحكم على مثل هذه الشؤون ، فتغضب وتحنق وتتسمنى بالحفاء والغلظة ، ثم نعود وللى إقرار السلام بيننا وهكذا دواليك ...

أصبتُ شيئاً من النجاح في محاولاتي الأدبية ، وكان قد مرّ على زواجنا عام واحد، فرأيت أن أهجر الاختزال ومصائبه، وأتفرّغ للتأليف ، فأصبحتُ أشرك معي « دورا » في المطالعة فترضى بذلك على سأم ، وأقرأ لما صفحات كثيرة من « شكسبير » محاولا " بذلك أن أجنتها الضجر من حياة العزاة التي تحياها حين أكون غائباً عن المنزل .

على أنسى لحظت غير مرة أن شيئاً ما ينخر فؤاد « دورا » ، أهمو حزنها على والدها؟ أم أستفها على النعيم الذي كانت ترتبع في بمحبوحته ؟ فبد لتها به الأقدار مسكناً متواضعاً ، وفرضت عليها القيام بتدبير شؤونه ، وما لمثل هذا خلقت ولا عليه درجت ونشأت ؟

ولم تنقطع عملى قط عن زيارتنا ومعاونة « دورا » فى كتبع جيماح الحدم والضرب على أيديهم السارقة ، وكانت لاتسميها إلا « الوردة الصغيرة » فكان يحلو على سمعى أن أسمع عملى تناديها وتخاطبها بمثل: تعالى أيتها الوردة الصغيرة ، خذى هذا الكتاب يا وردتى الصغيرة ، إن طعامك اليوم لذيذ شهى يا وردتى الصغيرة ، فلما تمكن الداء من « دورا » لزمتنى الوساوس ، وخشيت أن يكون لتلك التسمية فألها السبي ، فلا تعيش زوجتى

وحبيبتي أطول من عمر الورد .

وكثيراً ما كنت أحمل « دورا » بين ذراعتى ، وأنزل بها إلى الحديقة لتستنشق النسيم الرَّطْب، فهالني أن أحس جسمها يخف وزنه يوماً بعد يوم ، فغلبتني الأحزان على أمرى ، وشعرت أنى أسير إلى بقعة مجهولة يغطيها الصقيع ، فكان هذا الشُّعور الكئيب سبباً يملأ قلبي بفواجع الأتراح .

وجاءنى البريد ذات يوم برسالة من السيد «مكوبر» لم يتشلث فيها ضيقاً مالياً بل شكا فيها من راحة الضمير التي فقدها أبد العمر ، وكان أسلوب الرسالة نبيلاً ، ولكنه مشوب بالغموض ، وكان يرجو منى فى ختامها أن ألقاه أنا وصديقنا « جاك » فى شارع كذا بعد إذ عين لنا اليوم والساعة .

وما كيد تُ أنتهى من قراءة الرسالة حتى أقبل على « جاك » فبادرته قائلا ً :

\_ « لقد تلقیت یا عزیزی " جاك " رسالة غریبة من صدیقنا « مكوبر " . » فقال :

\_ « وتلقيّيتُ أنا رسالة من زوجته . »

فتبادلنا الرّسالتين، فإذا الزوجة تشكو ممنّا سبق أن شكت لى منه فى رسالتها السابقة ، ولكنها تذكر فى هذه الرسالة أنها كثيراً ما سمعت زوجها يقول إنه باع نفسه للشيطان. . . وتذكر فى الحتام أن زوجها مسافر إلى « لندن » فترجو باسم الصداقة القديمة أن يشترك « جاك » معى فى بذل المعونة لزوجها المعذب .

فكتبنا على الفور إلى زوجة السيد « مكوبر » رسالة وقعناها نحن الاثنين ، ووعدناها بالقيام بما ترجو ، وقررنا أنا و « جاك » أن نذهب إلى الموعد الذى ضربه لنا السيد « مكوبر » فوصلنا إليه متقد مين ربع ساعة وكان السيد « مكوبر » فى انتظارنا ، فلم يستقبلنا بالمرح الذى عرفناه عليه ، وإنما استقبلنا بوجه عابس قد ارتسم فيه عذاب القلب ، فتأبيط بيمناه ذراع « جاك » اليسرى وأخذ بيسراه ذراعى اليه وسار بنا قليلا وهو يقول :

- « إن فى الطريق إلى القبر دُروباً يتمنتى المرء أن لا يجتازها أبداً..» فقال « جاك » :

- « ما هذه الكآبة التي نراك عليها ياسيّد " مكوبر " ؟ فما عوّد تّمنا قط في أشد الآيام بؤساً أن نراك حزيناً عابساً ؟ »

فسكت ولم يجب ، وبعد هنيهة صمت سألته:

- « وكيف حال صديقنا و هيب ؟ ؟ »

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً وقال:

- « يا عزيزى " كوبرفيلد " لئن عددت هذا الرجل صديقك

لأرثيتن للحالك! ولنن عددته صديق لأسخرن من هذه الصداقة! ومهما تكن الأسماء والألقاب التي يُنتعت بها هذا الرجل فلن تخفي حقيقة حاله، إنه ثعلب ماكر بل إنه شيطان رجيم ... واعذراني إن أنا لم أتبسط في ذم منهذا الرجل الذي قادني إلى الهاوية ... »

وأخرج من جيبه منديلاً مسَحَ به جبينه ووجهه ، وطفق يبكى وينتحب ثم قال :

- (إنى شقى ألم بائس قلحتكم عليه شعور هالإنسانى أن يتألم ويتعد آب. لقد لقيت الآنسة وأنييس قبل أن ألقاكما ، وأثنيت على ذلك الملك العلم الطاهر ، بل على ذلك الكوكب الساطع فى ديجور الظلام ، فاتركانى أهيم على وجهى فى فيجاج الأرض لعل الدُّود يأكل بدنى فأكفر عن ذنوبى قبل أن ألقى وجه ربتى . »

وأشفقت من أن يتجمع حولنا المارة، ويطول الوقت قبل أن يُفضى إلينا السيد «مكوبر» بما يشغل باله ويعذبه، فاقترحت عليه أن نسير معا إلى بيت عمتى ونتمم الحديث فيه، وأخبرته أنها سيسرها التعرف إليه وإضافته تلك الليلة في منزلها، فقب لوضمتنا بيت عمتى بعد قليل، فقد منته إليها وإلى السيد « ديك » فرحبا به أجمل ترحيب، ثم عاد فأخرج منديله وطفق ينتحب فقلت له:

- « هوِّن علیك یا سید "مكوبر" وفتر ّج عن نفسك، وأنْقید ها هو آن علیك یا سید "مكوبر" وفتر ّج عن نفسك، وأنْقید ها

من ذلك السرّ الذي يبرّح بك، واعلم أنك هنا بين نسفر من الأصدقاء. ، فقال وهو لا يزال ينتحب :

- « إن رأيتمونى على مثل هذه الحال من الضّعْف والمخوّر ، فلأننى ببن نفس من الأصدقاء ... تسألوننى أن أبوح بالسر الذى يبرّح بنفسى ، وكان الأولى أن تسألونى عما لا يبرّح بنفسى . . . إن عذاب نفسى ناشىء من القسوة والسّفالة والتّروير والدّسائس، ومجموع هذا الهررم من الرّذائل يسمتى " هيب " . »

فدقت عمتی یداً بید ، وارتجفنا جمیعاً ، فاستأنف « مکوبر » حدیثه وقال :

- « كلا . كلا . فما عدت أستطيع أن أغالب نفسى وأصارعها . . . ولا عد ت أقدوى على الحياة في ذلك الصراع . . . » فاقتربت منه ومددت إليه يدى فابتعد عنى قائلا :

- « لا . لا يا " كوبر فيلد " ! لا تمس أيدى . . . حتى يعوض على الآنسة " أنييس " وعلى غيرها من الناس الضّرر الذى ألحقه بهم " هيب " ذلك الثعلب الماكر . . . أحتفظوا جميعكم جيسداً بهذا الذى أقوله : في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل . . . وفي ساعة الغداء . . . عليكم جميعاً بدون استثناء . . . حتى العمة الجليلة وهذا السيّد الفاضل . . . فسوف تجدونني هناك أن تحضروا إلى منزلي في القرية التي أقيم فيها . . . فسوف تجدونني هناك

وزوجتى وستسمعوننا نتغنتى بذكريات الأيام الجميلة الماضية ... وعندثذ أكشفُ القيناع عن "هيب " الحجرم الأثيم ... فما عندى شيء أزيده على ما قلت، ولا شيء أسمعه ... إن المجتمع ينشقيل صدرى ، فسوف أهرب منه وأجرى وراء " هيب " ذلك اللص " الحائن المجرم ! ... » وعلى الأثر انطاق انطلاق السهم إلى الشارع ، وتركنا حيارى مدهوشين مقطعى الأنفاس ...

وفى اليوم الذى حد ده لنا « مكوبر » كنا نحن الأربعة فى تلك القرية متوجهين إلى منزل « مكوبر » وعندما اقتربنا منه اتضح لنا أنه يسكن فى جناح من متبنى هو مقر شركة « ويكفيلد وهيب » فى حين يسكن السيد « ويكفيلد » وأسرته فى جناح آخر من المبنى عندما ينزلون بتلك القرية ، كما يسكن فيه أيضاً السيد « هيب » إبان إقامته فيها . وكان « مكوبر » فى مكتبه من الطبقة الأرضية منهمكاً كل الانهماك ببعض الأعمال الكتابية ، فلما وصلنا إليه صحت بأعلى صوتى :

- «كيف حالك يا سيد « مكوبر "؟ » فقال :
  - ــ « بخير يا عزيزي الله كوبرفيلد " . » فسألته :
- « هل الآنسة " أنييس ويكفيلد " في المنزل ؟ » فقال :
- «نعم إنها فى المنزل تُعننَى بأبيها المريض ، ولسوف تُسَرُّ كُلُّ السُّرور برؤيتكم . تفضّلوا بالله خول . »

ومشى « مكوبر » يتقدمنا إلى داخل المنزل ، ففتح الباب وقال بصوت جمَّهُورَى :

\_ « الآنسة "تروتوود" السيله "داڤيد كوبرفيلد" السيلد "جاك" السيد " ديك " . »

ورآنا "هيب" فدهش من زيارتنا المفاجئة ، ولم يقطّب حاجبيّه فما كان له حاجبان ليقطّبهما، ولكنه جعلّد جبينه حتى صغرُرت عيناه ، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى استعاد سكونه ورباطة جاشيه فقال :

- « ما أجمل هذه المفاجأة! بل ما أجمل هذا العيد الذي يسرنى بلقاء جملة من الأصدقاء معاً! »

ثم التفت إلى وقال:

- « كيف حال ُ السيدة " دورا " زوجتك ؟ أرجو أن تكون قد تماثلت ْ للشِّفاء . . . الله يعلم كم انزعجنا لمرضها . » فقلت له متأدّياً :

ــ « شكراً لك يا " هيب " على عاطفتك الرقيقة ! » وتوجّه بالكلام الى عمّى فقال وهو يبتسم ابتسامته الصفراء :

- « لقد مضى على زمن طويل لم أشرف بلقائك فيه يا سيدتى ... منذ اليوم الذى كنت فيه أجيراً عند السيد " ويكفيلد " ناظر المدرسة ووكيل أعمالك ... كل شيء قد تغيير ، ولكنبى أنا لم أتغيير ... »

## فقالت عمتى:

- \_ « لو شئتُ أن أكون صريحة لقلتُ لك إنك حققت كل ماكان يجيشُ في صدرك أيام الشباب من مطامع . » فقال :
  - \_ « أشكرك يا آنسة « تروتوود " . » فقال « جاك » :
- \_ « أرجو أن لا نكون قد أثقلنا عليك بزيارتنا ومنعناك من العمل . » فقال « هيب » :
- «كلا يا عزيزى . . . إن زيارة كم حبيبة "إلينا . . . إن العمل كثير "ضخم، ولاستيا منذ مرض السيد " ويكفيلد "، على أنه يسر أنى ويسر معاونى السيد "مكوبر" أن ننهض به ونرعى مصالح السيد " ويكفيلد " . »

ودخلت «أنييس» في تلك اللحظة ولم تكن هادئة مطمئنة كعادتها، فتحيّت منا وحيّي ناها، وأشار السيّد «مكوبر» في هذه الأثناء إلى «جاك» إشارة خاصّة، فخرجا معاً وعادا بعد قليل، وضاق «هيب» ذرّعاً بذلك الحروج وتلك العودة، ولم يتمكّن أن يفهم سرّها فقال يخاطب «مكوبر»:

\_ « لسنا فى حاجة إليك يا سيّد « مكوبر " فيمكنك أن تنصرف الى عملك . »

فضی « مکوبر » إلی الباب و وقف عنده لا يتحرك ولا يريم فقال الباب و وقف عنده لا يتحرك ولا يريم فقال الباب و وقف عنده الا يتحرك ولا يريم فقال

#### له و هيپ ه :

- « ماذا تنتظر ؟ أما سمعت أمرى بالانصراف إلى عملك ؟ » فقال « مكوبر » وهو جامد في موقفه :
  - « بلكي سمعت . » فقال « هيب » غاضباً :
- « ولماذا لا تمتثل لأمرى ؟ » فقال « مكوبر » وقد بدأ مر جكل السخوط يتغلى في صدره :
  - « لأنتى لا أريد الامتثال لأمرك . »
- فاحتُفِن وجه « هيب » ولكنه كظم غيظه وقال وهو يحاول الابتسام:
- « إنك رجل مسكين . . . وجميع الحاضرين يعلمون ذلك . . . وأخشى أن تُحوّر جنّي إلى طرّ دك . . . فاخرُ وسوف ألقاك بعد قليل . » وأخشى أن تُحوّر جنّي إلى طرّ دك . . . فاخرُ وسوف ألقاك بعد قليل . » فانفجر سُخط « مكوبر » انفجاراً عنيفاً وقال :
- « لو تجسّد الإجرام في هذا العالم لما تجسّم إلا في رجل يدعى " . » . »

فتراجع «هيب » كن لذَعتَه أفعى سامَة ، وأجال طَرَّفَه فينا جميعاً وقال يخاطبنا :

- « إنها إذن مؤامرة دَبَّرْتُموها، وضربتم موعداً التنفيذها في هذا المكان . . . ياوح لى يا سيد "كوبرفيلد" أنك تريد التواطؤ مع أجيرى ولكن حدار! فأنا أعرفك وأنت تعرفني ، وكلانا يضمر للآخر الحقد

والبَعْضاء ... إنك تحسدنى على أن ارتفعت وأنت ما زلت عالمةا بالأرض، فجئت تشترى أجيراً لى هو من حثالة المجتمع ، كما كنت أنت في ماضى أيامك ... أجل جئت تشتريه ليقذفني بالتهم والأكاذيب ... والتفت إلى « أنييس » ومضى يقول لها :

- « بحق حُبُّكُ لأبيك يا آنسة لا تنضمنّي إلى هذه العيصابة ، وإلا ألحقت بأبيك الخراب والدَّمار ! »

وتابع حديثه يخاطب « مكوبر »:

\_ ( أقدم يا "مكوبر" إنى ممسك " بك بين مخالبي . . . وسوف أحط مك ين مخالبي . . . وسوف أحط مك ين مخالبي . . . وسوف أحط مك تحطيماً ، فابتعد فما زالت لك هناك فرصة للنهجاة ! » فقال ( جاك » في هدوء وسكون :

ـــ « هلا خفق من غلوائك يا سيد « هيب " ؟ ! » فقال « هيب » مغيظاً معندة إ:

\_\_ « ومنأنت أينها الرجل لتفرض على نصحك البغيض ؟ » فقال «جاك » بلهجة خطيرة هادئة :

- « أنا صديق "السيّد ويكفيلد" ووكيله الشرعيّ، وفي جيبي توكيل منه يُبيع أن أتصرّف باسمه وبالنيابة عنه في كل ما أرى من شؤون . » وكان « مكوبر » قد اتسفق مع « أنييس » على أن تستكتب أباها ذلك التوكيل سريًّا ، فلمنّا خرج هو و « جاك » من الغرفة دفع به إليه

وأفهمه ما يريد إفهامه . فقال « هيب » وقد جحظت عيناه وازداد امتهاع لونه :

- « إذن لقد فَقَدَ ذلك الحمارُ الأبله صَوابه ، فانتزعتم منه ذلك التوكيل تزويراً وتدليساً . » فقال « جاك » :

- « أعـُرِفُ أن بعضهم قد انتزع منه أشياء تزويراً وتدليساً ، وأنت أعـُرفُ مناً بذلك يا سيد" هيب "فإن شئت كـَلّـفـُنا السيـّـد" مكوبر " أن يوضِّح لنا المسألة . »

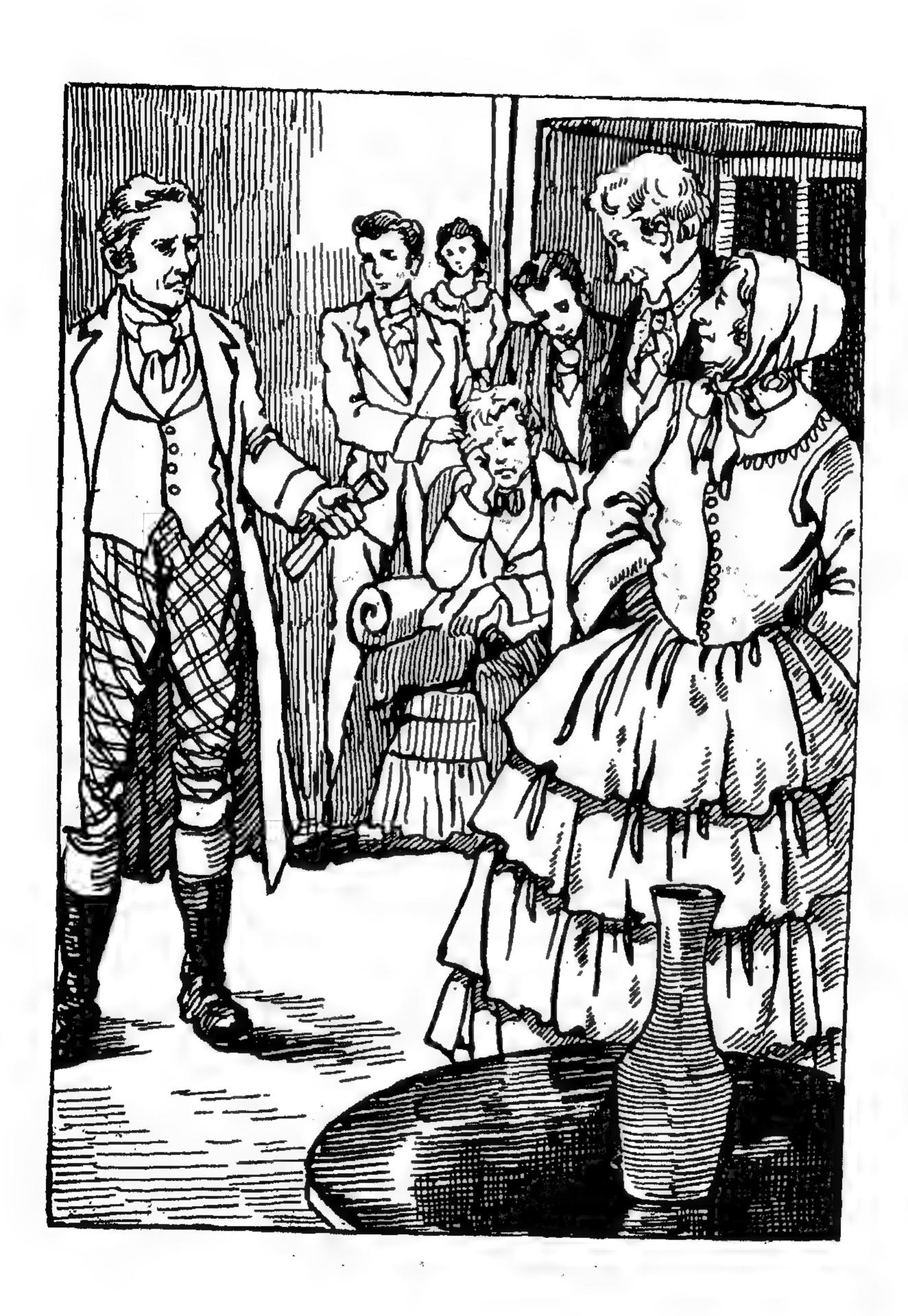
فأخرج « مكوبر » على الأثر من جيبه مجموعة أوراق مطوية ، فنشرها وأخذ يقرأها بصوت جمه وري وبعد أن استها ها بوصف الضائقة المالية التي رمته بين براثن « هيب » قرأ ما يلي :

« دفعتني يوماً الفاقة أو الجنون إلى كتب الشركة المعروفة باسم "و يكفيلد وهيب " ولم يكن يديرها في الواقع إلا " هيب "، و "هيب" وحده هو محرّك تلك الآلة ، و " هيب " وحده هو اللص المزور . »

وتبداً وجه «هيب» من الصُفْرة إلى الزّرْقة ، فهجم يريد اختطاف عجموعة الأوراق وتمزيقها، فكال له و مكوبر " ضربة أليمة من مسطرة كانت في يده، فرجع عنه مر غياً مر بدأ مهد دا، فقال له «مكوبر»:

- « حَدَارِ من الهجوم مرّة أخرى و إلا " دققت عُنُـقك . » فرجع عنه خصمه ، وارتمى إلى أحد المقاعد مقفل العينين ، وعاد

666666666666 \\\ DDDDDDDDDDDDDDDD



« مكوبر » إلى القراءة . و بعد فقرات كثيرة تفيض بالشُّعور الحيّ و بلاغة الأسلوب قرأ ما يلي :

« وإليكم التّهم التي أوجهها إلى "هيب". »ومضى « مكوبر »يقرأ : « ولمّا ضعفت قُوى السيله " و " العقلية ، لأسباب لا داعى إلى ذكرها ، اجتهد "هيب " في إشاعة التعقيد والفوضى في كلّ أعماله ، وكلّما ازداد السيد " و " ضعفاً وحاول أن يبتعد عن مزاولة الأعمال ، ازداد "هيب " إيعازاً له بمزاولتها ، فني تلك اللحظات من الضّعنف والانحطاط الفكرى ، اضطرّه «هيب » إلى التوقيع على وثائق هي على جانب عظيم من الحرطر والأثر ، موهماً إيناه أنه إنها يوقع على أو راق تتعلق بمسائل تافهة ، ووصل به الأمر إلى أن يستصدر منه ترخيصاً في استعمال مبلغ كبير من المال كان وديعة "لديه ، زاعماً له كذباً واحتيالا "أنه سيدفعه مبلغ كبير من المال كان وديعة "لديه ، زاعماً له كذباً واحتيالا "أنه سيدفعه المريض ، و يخشعه لأهوائه وسلطانه ، ويفرض عليه تنفيذ ما يرغب . » فصاح «هيب » قائلا " :

- « عليك يا " كوبرفيلد " أن تقيم الداليل على كل هذا . . . ولكن صبراً فسوف نلتقي . » فقال « مكوبر » وقد قطع القراءة : - « يا سيد " جاك " هل لك أن تسأل " هيب " عن دفتر لقيه في مكتب السيد " ويكفيلد" واستولى عليه ؟ وهل لك أن تسأله عن دفتر

&&&&&&&&&&&

أحرق في هذا المنزل؟ فإن أجاب نعم وسألك عن رَمَاد ذلك الدفتر فأحله الى المدعو " مكوبر " يعلم منه أشياء لا تسره . " وعاد « مكوبر " إلى المدعو " مكوبر " الله القراءة :

« وَعَمّد " هيب " على ما ظننت وعلمت إلى التزوير غير مر" في عدد من الأوراق والسجلات والوثائق ، محاكياً توقيع السيّد " و " ولا سيّما في مسألة أستطيع أن أقد "م الد ليل عليها : مرض السيّد " و " وكان من المتوقع لو مات المريض أن يضمحل " نفوذ " هيب " على أسرته ، فسلب منه توقيعاً على وثيقة يعترف فيها بمبلغ هاثل من المال اقترضه من " هيب " لينقذ به نفسه من العار ، في حين أن ذلك كله كذب وافتراء ، ومن العجب أن تلك الوثيقة مذيبًلة بتوقيع شاهد هو " مكوبر " . هذا وتحت يدى جملة توقيعات زوّرها "هيب " في الدفتر الذي أحريق ، فبعضها مطموس" ، وبعضها ظاهر لم تأت عليه النار . . .

وتحت يلى كذلك جميع الدفاتر والسجلات الخاصة بهذه الشركة ، فقد أخنسًا من الصندوق الحديدي وأودعتها مكاناً أميناً إلى أن يطلب من تقديمها إلى النبيابة والقضاء .

إنى فى حياتى كلها لم أكتب مثل هذا التقرير ، فهذا الذى قرأته صورة منه ، أما الأصل فقد دفعت به إلى السيد " جاك " . » وماكان أشد دهشتى عندما رأيت عمتى تهجم على "هيب "وتُمسيك

## بخناقه وتقول له:

- « أعيد إلى بروتى أيشها اللص ... عذراً با "أنييس" فقد كنت سكت على متضض عيلها بأن أباك هو المتصرف في مالى ، وأن الحظ خانه في ذلك التصرف ، ولقد كتمت الأمر حتى عن " داڤيد " وزعمت أنى أنا صاحبة الرأى في شراء أسهم تلك الشركة المفلسة ، أماً وهذا اللص هو السارق ، فأريد استعادة ثروتى . »

ونظر إلى «هيب» نظرة يتطاير منها شَرَرُ الحقد وقال:

- « والآن ماذا تريدون منتى؟ » فقال « جاك » :
- « أن تقد م لنا أو لا العقد الذي نزل لك فيه السيد " و يكفيلد " عبن جميع ماله ، وأن تعيد ثانياً حتى البنس الأخير جميع ما سرقت وسلبت . » فقال « هيب » :
  - « دعونی أفكر . » فقال « جاك » :
- « لا بأس ، ولكنك ستدخل غرفتك وان تخرج منها حتى توافينا بقرارك الأخير . وسنحرس منه الغرفة فلاتفكر في الفيرار إلا إذا شئت أن يتولني رجال الشرطة هذه الحراسة عنا . »

فأذ عن «هيب » لرأى جاك ، فدخل غرفته وأقفلنا عليه الباب ، وأرسل «مكوبر » يدعو زوجته إلينا ورجا منا أن نشهد مصالحتهما ، وأرسل «مكوبر » يدعو زوجته إلينا ورجا منا أن نشهد مصالحتهما ، فتجاءت ومعها جميع أولادها ، فتم عقد الصلح بين الزوجين ، وكنا

جميعاً شهوداً عليه ، ولما رأت عمنى ذلك الجيش الجرار من الأولاد سألت و مكوبر ، قائلة :

ـــ لا لماذا لا تهاجر يا سيلد " مكوبر " إلى " أستراليا " بدلا " من أن تجرر أثقال الحياة في " إنجلترا "؟ » فقال :

\_ « لقد كان ذلك حُلْميى في عهد الشباب وما زلت أحلم به ، ولكن المال هو الذي يُعوزني ! » فقالت عملي :

ر إنه مدينون لك بالشيء الكثير، ولسوف نوفر لك ذلك المال . » فقالت زوجته تدخاطب عميني أنه المدينة المال . »

\_ « وهل حال فلك البلد مما يسمح لرجل ممتاز في مواهبه مثل زوجي، أن يعلو في السلم الاجتماعي؟ » فقالت عملى ضاحكة: وقلما تضحك :

. \_ « إنه البلد الذي يحتاج إلى مواهب زوجك وكفايته ! »





أكتب هذه السطور وأنا أذ رف الدمع السّخين على زوجتى «دورا» لوردة الصغيرة، فبعد أن أعمل الداء سيامه في جسمها الغيض ، لفظت نفاسها بين ذراعي « أنييس » وخليّفتني للهم والغم والخسرات ، حتى سود ت الدّنيا في ناظرى ، ود ب الياس إلى قلبي ، فأصبحت لا أرى للاص من دنياى المثقلة بالشّجون والاحزان إلا بالموت وسكّنى القبور . نصحوني بالسّفر الماساً للعّزاء والسّلنوان ، ويغلب على ظنى أن «أنييس» نصحوني بالسّفر الماساً للعّزاء والسّلنوان ، ويغلب على ظنى أن «أنييس» ني التي أوحت بذلك ، فقد لمسنا جميعاً منها في أيّام عنتنا الكبرى عبة وصف ، ورعاية لا تُذّ كُور إلامشفوعة بأجمل آيات الشكر . ولست

BREBERRERE III DDDDDDDDDDDDD

أنسى كذلك صديقى « جاك » فقد غمرنى ببالغ حبه ووداده ، وشاطرنى الأسى ، وحملنى على الصّبر والتّأساء .

ولقد قرّرت السفر نزولاعند نُصْح النّاصحين ، ولكنى تمهـلتُ فيه حتى أشهد آخر فصل من رواية « هيب » على حد تعبير « مكوبر » ، وأشهد كذلك رحيل المهاجرين إلى « أستراليا » .

وفي صباح أحد الأيام ، رحلت قافلتنا المؤلفة ، في وون « جاك » ومن عتى و « أنييس » إلى القاء « وكوبر » ، فرحب بنا وأخرج من جيبه مفكرة أخذ يقلب بعض صفحاتها ، ثم قال في هدوء ورزانة : — « من حيث أن فريقاً من الأصدقاء ينصحني بالهجرة إلى "أستراليا" فقد قبلت النصيحة ، وسوف أرحل في أقرب وقت مستطاع ، ومن حيث أن هؤلاء الأصدقاء وفي طليعتهم الآنسة " تروتوود " قد كفاوا لي نفقات السفر للطفا منهم وفضالاً ، فيسرتني أن أقبل المبلغ على سبيل القرض، على أن أفي به نسبئية في ثلاث دفعات : الأولى يعد ثمانية عشر شهراً ، والثانية بعد سنتين ، والثالثة بعد سنتين ونصف سنة . » فقالت عمتى : والثانية بعد سنتين ، والثالثة بعد سنتين ونصف سنة . » فقالت عمتى : صند وأيك و رغبتك ! »

فقال « جاك »:

... « يسرّنى أن أعلن على رؤوس الأشهاد أن السّيد " مكوبر "

قد خدمنا وخدم الحق والإنصاف والعدالة خدمة جُلَّى، ولا يفوتى في هذا المقام أن أشيد أيضاً بفضل السيد « ديك » فنذ أن انتهت مهمته في حراسة « هيب " والحيلولة دون فيراره ، وهو يبذل الجهد الوافر في رعاية مصالح السيد « ويكفيلد " فأعاننا على البحث في الدفاتر والسجلات ، ونستخ جميع الوثائق التي احتجنا إلى الحصول على صُورٍ منها ، وقام بكثير من المساعى الصغيرة التي سبهلت علينا العمل . « فقالت عميني :

ـــ « إن السيد " ديك " رجل ممتاز ، وكثيراً ما أطنبتُ في الثّـناء على مواهبه . . . . أتذكر ذلك يا " داڤيد " ؟ »

ولم يترك « جاك » لى الفرصة حتى أجيب عن سؤال عمتى مؤمناً على كلامها ، بل بادر إلى توجيه الحطاب إلى « أنييس » وقال :

- « يُسْعِدني با آنسة " و يكفيلد " أن أنهى إلياك أن صحة والدك قد تحسنت تحسناً ملحوظاً فى أثناء غيابك، بعدما زال عنه عبء الهم وكابوس المخاوف. ولكن أحواله المالية بعد كل الجهد الذى بذلناه فى استرجاع ما أمكن استرجاعه، ليست على ما يرام ، فلن تترك له شيئاً يُـد كر بعد تصفية ديونه . » فقالت « أنييس » :

- احسبى أن يكون فى صحة وسلامة ، ولسوف أعرف أن أوفر له شيخوخة هانئة ، فأنا بَعْدُ فى مقتبل العمر ، ولن يضيرنى العمل وكسب رزقنا بعَرق الجبين . » فقال « جاك » يخاطب عمتى :

ـــ « والآن يا آنسة " تروبوود " يجب أن نعنى برد ثروالك إليك . » فقالت عمتي متنهدة :

... « إن كانت قد تبخرت في الهواء ، فسوف أستسلم لمشيئة الأقدار ، وإذا كانت لا تزال في حيز الوجود فيسر في أن أستعيدها . " فقال «جاك» :

- « إنها في حيز الوجود يا سيدى وقد استطعنا أنا والسيد " مكوبر " أن ننتشلها من برائن الذئب " هيب " فقالت عمتى :

- « على بركة الله! ذلك خير وأبتى! ولكن ماذا جرى للذئب الضارى؟ » فقال « جاك »:

- « كل ما أعرفه عنه أنه عاد إلى " لندن " لا فقالت عمتى :

« الأبالسة ! » -

ثم ابتعدنا نحن جميعاً عن السيد « مكوبر » قليلا " ، وتداولنا معا ، وقررت عمتى أن تنقده خمسائة جنيه يستعين بها على سفره وعلى مزاولة نشاطه فى مته جبره .

و بعد أيّام قلائل كنا جميعاً على رصيف ميناء « لندن » نودع السيّد « مكوبر » و زوجته وأولاده ، وتشاء الأقدار أن يسافر معه على الباخرة نفسها شقيق « بيجوتي » و من حواه منزله ، فقد ضاق بهم الرزق فى الوطن فرحلوا يلتمسونه في الأرض البعيدة . أمّا الدموع الغيزار التي سكبتها « بيجوتي » في وداع شقيقها فلن أنساها أبد العمر .

ورحل المهاجرون، وعُد من أنا إلى الحزن والأسى أجرر أثقالهما ، فرحلت بعد أيام إلى إيطاليا وسويسرا أطوف مهما فى القرى والمدن والجبال، وأشغل نفسى من الصباح إلى المساء بالكتابة والتأليف ، فكتبت قصة استوحيتها من أحزاني وآلاى ، وبعثت بها إلى صديقى « جاك » فتولني نشرها، وأرد فنتها بنانية وثالثة فاكتسبت من وراء ذلك مالا ونلت شهرة واسعة وصل إلى صداها مع الركبان وجماعات السياح . واسترحت قليلا من عناء التأليف ، ثم أقبلت على وضع قصة طويلة ، وكنت قد وصلت إلى منتصفها عندما قررت العودة إلى إنجلترا بعد غياب دام ثلاثة أشهر . وزلت من الباخرة في ليلة من ليالى الحريف الباردة العاصفة ، وكان في استقبالي الظلام شديد الحكلك، والمطرينهمر كمن أفواه القرب ، ولم يكن في استقبالي أحد من معارفي وأصدقائي لأني كنت أبلغتهم أني عائد — عشية عيد الميلاد ، فسبقت عودتي لأسرهم بالمفاجأة .

وكنتُ علمت من رسائل « جاك » إلى أنه افتتح مكتباً للمحلماة باسمه ، وأن بعض المتقاضين قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، وأنه قد انتقل إلى مسكن جديد لائق لأنه يرجو أن يتزوج عن قريب « بخير فتيات العالم » وكنتُ علمت من رسائل عتى أنها عادت إلى قريتها، ومن رسائل أنييس » أنها موفقة في العمل الذي اختارته لنفسها وهو التدريس في إحدى كليات البنات .



خرجتُ من الميناء فلم أجد مركبة تقليني إلى حيثُ أشاء، فوضعت حقائبي في مخزن الودائع ، وسيرت على قدمي إلى منزلنا فبد لت ملابسي المبللة بالمطر، ونزلت أسعى إلى منزل صديقي « جاك ».

توهد من أن ألتي المنزل الجاديد اللائق الذي حدثني عنه صديقي «جاكه في حيّ متوسط من أحياء المدينة ، وعلى جانب ولو متواضع من فخامة البناء مادامت الدنيا قد بسمت له ، وما دام المتقاضون قد عرفوا الطريق إلى مكتبه ، ولكن حز في صدري أن أرى أن منزله الجديد اللائق هو من حيث الحيّ والبيناء ، في المنازل التي لا ترقى إلى صفة التواضع ، وإن ارتق درجة أو درجتين عن منزله القديم في سلمّ المجتمع ، فأدركت أن إقبال الدنيا على المحامى ، أمر تتقطع دونه الأعناق ، ويتطلب عشرات السنين . طرقت الباب ففتحه لى رجل قصير القامة تدل ملائحه على أنه يجمع بين وظيفة الكاتب والحادم معا ، فأوصلي إلى صديقي « جاك » وكان جالساً إلى منضدة ازدحمت فوقها الأوراق والوثائق ، وغرق هو بين أمواجها فرفع رأسه على صوت وقع الأقدام ، فما كاد يلمحنى حتى خف إلى معانقاً مقسلاً وصاح :

- · «: داڤيد "؟ ما هذه المفاجأة السارة ؟ » فقلت :
- « أكل شيء معك على ما يرام يا « جاك "؟ » فقال:
  - « كل شئء على ما يزام . »

فعدنا إلى العيناق باكيين من فرحنا باللقاء ، وعاد يقول : ـــ « ما أشد سرورى بلقائك يا «داڤيد "! لقد أطلت علينا الغياب! الله في هذه السَّمْرة التي لوَّحَتْ وجهك! »

أميًا أنا فقد انعقد لسانى بلقاء هذا الصديق الصدوق، فما فُهتُ بحرف ردًّا على سروره وفرحه ، فتابع هو الحديث قائلا:

- « آه يا صديقي العزيز . . . لقد أصبحت رجلاً طائر الشهرة ذائع الصيت . . . ولكن متى وصلت ؟ ولماذا لم تنبئني بموعد أو بتك ما دمت قد عجلت فيها و رجعت قبل عيد الميلاد ؟ » فقلت :

- « يقولون : وما أحلى زيارتها إذا جاءت بلا وعد. » فقال : - « سامحك الله ... لو عجلت أياماً قلائل لكنت شهدت العرس . افقلت مدهوشاً :

- « أي عرس كنت شهدته ؟ » فقال متعجباً :

- « عُرْسَى أنا . ألم تتسلم رسالتي الأخيرة ؟ » فقلت :

- « إذا كانت هي الرسالة التي تنبئي فيها بعرسك فهذه ولا شك لم أتسلَّمُها . » ثم أضفت قائلا :

سر اقبل إذن أصدق التهنئات من أوفتي صديق . . . ولكن أبن عروسك . » فقال :

- « هي هنا في الغرفة المجاورة . » وطفق يصيح بأعلى صوته :

۔ « صوفی " . . . " صوفی " هذا صدیقی " دافید کو برفیلد " الذی طالما حد"ثتك عنه قد عاد . . . تعالی . تعالی . »

وأقبلت علينا شابّة حسناء في ربيع العمر فحيّيتُها وهنأتها، وبدا لى من حديثها وحركاتها أنها المرأة اللطيفة الذكية السّعيدة ، فتمنيت لهما أصنى الأيام وأحلاها فقال لى :

- « أرأيت أنت نفسك أنها « خير فتيات العالم " كما كنت قد ذكرت الدالم ؟ ي فقلت :

- « إنها فوق ذلك . . . لقد كذّب البخبر المخبر . . . » فاحمرت وجنتا « صوفى » حياء وسروراً ، وسر « جاك » أن يسمع منى هذا الإطراء والثناء على عروسه المحبوبة .

روشددت الرّحال في اليوم التالى إلى دار عمّتى ، ونزلت عليها نزول الصّاعقة ، وكانت تتناول الشاى هي والسّيد « ديك » و « بيجوتى » العجوز الطيبة وقد أصبحت هذه مدبرة لمنزلها في فاستقبلوني بالدّ موع والقبرل .

وقضيتُ الليل أنا وعملي نتناجي ونتحدّث ، فأخبرتني أن أخبار المهاجرين الواردة منهم تدل كلها على الرضي والحبور ، وأن السيد « ديك » يقضي معظم وقته في نستخ كل ما تقع يده عليه ، وزادت على ذلك رأيها المعروف بأنه ما من أحد غيرها يستطيع أن يقدر السيد « ديك »

حق قدره ، ثم سألتني :

ــ « ألم تزر " أنييس " ؟ » فقلت :

۔ « کلا یا عمنی ، فقد زرت ، جاك ، لیلة وصولی ثم سارعت لیك . . »

فأخذت يدى في يدها وقالت بلهجة رقيقة :

من العاصمة ، فما عرفت فتاة أصنى منها قلباً ولا أرجم عقلاً ، ولا أصد ق وداداً! »

وفتحت لى عمتى بكلامها الرقيق وأخذه الدى فى يدها وثنائها على « أنييس » آفاقاً جديدة من التفكير ، فسترح خيالى فيها ووقف عند فكرة رجعت بى إلى الماضى ، فقلت فى نفسى : لئن كانت « أنييس » قد. أحبتنى عبه الشقيقة للشقيق ، لقد كان فى مقدورى أن أحول مجرى ذلك الحب ، ولكن اندفاع الشباب وثوران القلب الجامح ، قد صرفانى عنها إلى غيرها ، وأصماً أذنى عن صوت قلبها ، بل عن تلميح عمتى فى بعض الأحيان .

وكانت عمتى تراقبنى وأنا مستسلم الى التفكير، فالتزمنا كلانا الصمت قليلاً ثم قالت :

. « ستری أباها عندما تزوره قد ازداد بیاض شعره ، ولکنه صحیح

سليم مُعافى جسماً وفكراً ، وستراها هي على ما عرفت من جمالها وحنانها \_ وطيب عنصرها . »

فيا له من ثناء جميل على « أنييس »! ويا له من عتاب مر لى! يفهمني أنى كنت قد ضللت السبيل ، فعادت عمتى تقول والدّ مع يملاً عينها :

- « إن الفتيات اللواتى تُعلَمُ هُنَ وتغرس فيهن مثل فضائلها ، سيكن ولا شك زهرات المجتمع . » فقلت بصوت عال وأنا أحسبى أهمس في نفسى :

ــ « ألم تصادف " أنييس " . . . » فقالت عمتى مقاطعة :

- « تصادف من ؟ تصادف ماذا ؟ » فقلت :

ــ « رجلاً يرغب في تزوُّجها . . . » فقالت عمّتي في كبرياء المستنكر :

- « طلب يكه عشرات . . . بعد رحيلك . » فقلت :

- « لا شك في ذلك ... ولكنها هل وجدت الرجل الذي يــــ بها ؟ فنثل " أنييس " تعرف أن تُحـُسـِن الاختيار . »

فسكتت عمتى هنيهة معتمدة ذقنها بيدها، ثم رفعت رأسها وقالت:

- « يخيل إلى أن لها حبيباً تؤثره على غيره . » فقلت :

- « وهل يباد لها ذلك الحبيب الحب ؟ » فقالت عمتى جادة:

- « لا أعرف ، وليس من حقى أن أؤكد مافهت به ، فما حد تتنى

بذلك قبط ، وإنما هو أمر أتخيَّلُه . »

ثم نظرت إلى نظرة الواجف القالمي ، فأيقنت أنها توغالت في أعماق نفسى ، ثم أنهينا الحديث وتوجّه كل إلى غرفته .

وفى اليوم التالى رحلت عن القرية عائداً إلى العاصمة ، وذهبت عند الأصيل إلى منزل « أنييس » وطلبت من الحادمة التي فتحت لى الباب أن تبلغ الآنسة « ويكفيلد » أن بالباب رسولاً من قبل صنديق لها يطوف بالبلاد الآوربية ، فأدخلتني إلى البهو ، وذهبت تبلغ سيدتها ، فضيت بالبلاد الآوربية ، فأدخلتني إلى البهو ، وذهبت تبلغ سيدتها ، فضيت إلى النافذة أسرَّحُ منها الطَّرْف في المنازل المقابلة ، فلما أحسستُ الباب ينفتح ورائى ، ارتجفت كلُّ أوصالى ، فالتفتُّ فرأيتُ « أنييس » تنظر ينفتح ورائى ، ارتجفت كلُّ أوصالى ، فالتفتُ فرأيتُ « أنييس » تنظر إلى " نظرتها الهادئة الجميلة وهي واقفة " مضطربة فقلت :

- -- « عذراً يا « أنييس " إن أنا فاجأتك بهذه الزيارة . » فقالت :
  - ــ « إنى سعيدة برؤيتك يا « داڤيد " . » فقلت :
  - \_ « بل أنا السعيد بالعثور عليك ولو بعد حين . »

فسكت وسكت برهة قصيرة ، ثم جاست وجلست إلى جانبها ، ورأيت في وجهها الصبيح أسارير الفرح المغتبط ، وقسمات الشقيق الحنون، فاختلجت جوانحي وعرصتني الألفاظ حتى فتح الله على فقلت لها .

ــ « حدثینی عنك یا در آنییس " كیف حالك وماذا تفعلین ؟ »

فقالت في بسمة الملائكة:

- « وماذا تريد أن أحد أنك عنه . . . إن والدى والحمد لله في صحة جيدة . . . ومشكلاتنا قد تبد دت . . . وأنت أعلم منى بكل شؤوننا . » فقلت متسائلا ":

ــ « بكل شؤونكم؟» فنظرت إلى في شيء من الدهم والاضطراب نقلت:

- « أليس هذاك شيء تفضين به إلى يا شقيقتي العزيزة ؟ » فاختلف وجهه بها بين الصفرة والحمرة ، ثم تبسمت تبسم الحزين وهزت رأسها سلباً ، وكان الغرض من سؤالي أن أمهد لها السبيل في طرق الموضوع الذي حد ثني عنه عمتي ، وإن آلمي سماعه ، فلما رأيت اضطرابها عدلت عنه وقلت :

\_\_ « أعملك مرهق يا « أنييس "؟ » فعادت إلى سكونها واطمئنانها وقالت :

\_ « لذَّةُ التدريس تجبُّ المتاعب . »

وسر آنى أن أرى فى هذه اللحظة والد « أنييس » يدخل البهو ، فسارعت إلى تحيته ، فغمرنى بأبلغ آيات الوداد ، وشكر الله على النعمة التى أسبغها عليه باسترجاع صحته وسلامته ، وأخذ يطنب فيا تحم لته ابنته من مشاق فى العناية به والسهر عايه ، ثم غادرنا إلى مخدعه فسألتنى « أنييس » قائلة :

- \_ « أتنوى القيام برحلة أخرى يا " داڤيد "؟ » فقلتُ وقد آليّت أن لا أفاتحها في أمر عاطفتي المتتقدة ، خوفاً من أن أعود خائباً ، فأفقد ما تحيطني به من مود"ة الشقيق .
  - \_ « وما رأى شقيقتى فى ذلك ؟ » فقالت :
- \_ « أرى يا " دافيد" أن تتفرّغ للأدب ، فشهرتك ونجاحك فيه حتى اليوم يحتّمان عليك الاستمرار في الكتابة والتأليف ، ويسرّني أن أسمع عنك دائماً أطيب الأنباء . » فقلت :
- . \_ « أنا غرس يديك يا ملككى الحارس، ولسوف أنزل دائماً عند نصبحك وإرشادك . أتذكرين يوم زرتيني في منزلي وكانت " دورا " على قيد الحياة ، فوقفنا معاً إلى النافذة وأريتني السماء ؟ » فقالت والدّمع يترقرق في عينها :
- \_ « رحمها الله! إنها كانت مثال الجمال واللطف والدّعة ، فكيف أنساها ؟ » فقلت :
- \_ « لقد رد د ت في نفسي غير مرة ، أنك أرشدتني دائماً إلى السماء، وأنك قد ت خطواتي أبداً إلى أهداف الكمال . »
- فشكرتني على حسن ظنتي بها ، وقالت إنها لا تستحق كل ذلك الثناء.

والنشاط ، فود عنها محيياً شاكراً ، وانكببت منذ تلك اللحظة على القصة الطويلة التي كنت قد بدأت كتابتها ، فأتممتها في ثلاثة أشهر ، وكان وجه « أنييس » لا يفارقني في صباحي ومسائي ، وفي غدوتي ورواحي ، ينفخ في روح العزم إذا تعبت وكللت ، ويفتح لي مغالق الإلهام إذا بحث خيالي وكبا فكرى ، ويوم نفضت بدى من القصة ، وأرحت قلمي ، رضيت عن عملي ، وبعثت إلى « أنييس » على أجنحة النسيم بأسمتي عواطف الشكران . . .





1.

مر على رجوعي إلى « لندن » نتحو من شهرين، واقتربنا من عيد الميلاد ، ولقيت « أنييس » غير مرة في هذه الأثناء ، وتوالى على ثناء المعجبين ، ولكني كنت أوثر عليه مديح « أنييس » وتشجيعها ، وعاد الحزن مع هذا يقرض بينابه جوانحي وفؤادي ، فكنت أحاربه بالعمل المنج هذ المنفي ، وبالاستسلام أحياناً إلى الرياضة .

وكنتُ إذا قرأتُ على « أنييس » بعض الصفحات مما أحبرُ وأدبج، ورأيتها تُصغى إلى ضاحكة حيناً وباكية حيناً آخر ، أو سمعتها تشترك في هذا العالم الذي تخلقه يراعتي محتفية به مكترثة له ، علمتُ أيّة حياة

كنت أحياها لو تنبهت فيما مضى إلى هذا الكنز التمين، ولكنبى أدركت الأشياء بعد فوات الأوان، وبعد تزوجنى « دورا » ولات حين ندامة ... وكانت عمتى تشاطرنى مثل هذه الأفكار، ولكنها قد أمسكت عن العودة إلى الحوض فيها، مدركة ما يجول فى خاطرى وما يحملنى على السكوت، وكانت قد أقبلت إلى « لندن » منذ أيام لتقضى فيها عيد السكوت، وكانت قد أقبلت إلى « لندن » منذ أيام لتقضى فيها عيد الميلاد معى، فرأت يوماً تيلالاً من الأوراق مكد سة فوق من ضدى الميلاد معى، فرأت يوماً تيلالاً من الأوراق مكد سة فوق من ضدى

في عيناء التاك لتقضى الساعات الطوال في عيناء التأليف، ووالله ما قدر رت وطيع هذا العيناء أيام كانت القراءة تستهويني إلا بعد أن رأيتك تعمل وتجد.» فقلت لها:

· — « قد يُلاقى القارئ أحياناً مثل هذا العناء يا عملى ، وكيفما كان الأمر ، فقالت : الأمر ، فقالت :

- « نعم ، متعة المجد والشهرة ، ومتعة أشياء أخر ! » فقات :

- « أتعلمين شيئاً جديداً يا عملي عما حد تُنتي عنه من غرام «أنييس» بفارس أحلامها ؟ » فحملقت في طويلا وقالت :

· سيخيالُ إلى أنى أعلم . » فقلت :

- « أو ثبيت لك ما كنت تظنين وتتخيلين ؟ » فقالت :

- « أجل لقد ثبت لى يا "داڤيد"!»

وأخذت تطالع فى أسارير وجهى المعانى التى تدور بـِخَـلَـدى ، ثم قالت :

ـــ « نفسى تحد ثنى أن « أنييس " ستتزوج عما قريب. » فقلت : ـــ « باركها الله ، وكتب لها السعادة! » فقالت :

ــ « نعم كتب الله لها ولزوجها السعادة . »

وشاطرت عمري دعاء ها وأمانيها، وأوعزت إلى النفس أن لا بد لى من حديث صريح مع «أنييس» نضع فيه الأمور في نيصابها، فذهبت الى زيارتها في صباح اليوم التالى فألنف يتهاو حدها مستفيدة من عطلة الدراسة للانهماك فيا يحاو لها من المطالعات، وكان كلام عتى لا يزال يملأ خاطرى فأهبت بشجاعتى وأفضيت لها بمكنون صدرى، وأسفر حديثنا عن صواب ما رأت عمري من قرب زواج «أنييس»، ومنذ تلك اللحظة أصبحت «أنييس» نعطيبي .

فدهبنا معاً إلى لقاء عملى ، فأخبرتنى «بيجوتى» أنها فى مكتبى ترتب لى أوراق ، فدخلنا المكتب وألقيت نظرة سريعة على منشدتى ، فإذا هى بما حفلت به من أوراق وكتُب ، على جانب عظيم من الترتيب والنظام ، وإذا عملى قد غرقت فى مقعد طويل وفى يدها كتاب تطالعه ، ونظراتها فى منتصف أنفها ، فرفعت نظراتها عن عينها ، وأخذت توزع نظراتها بينى وبين «أنييس » لعلها تستشف من قسماتنا ما يحقق أمنيها ، فما لقيت بينى وبين «أنييس » لعلها تستشف من قسماتنا ما يحقق أمنيها ، فما لقيت المناهدة المناهدة

منّا إلا وجهاً جامداً لاينف صبح عمّا في سريرتنا، وكنتُ قد اتفقتُ و«أنييس» على هذا إمعاناً في مفاجأة عنّتي .

وحضر السيد « ديك » في هذه الأثناء فتوجّه ننا كلّنا إلى المائدة لتناول طعام الغداء ، وانتظرت حتى فرغنا من الأكل وانتقلنا إلى البهو فقلت أخاطب عمّتى :

- «نسیتُ یا عمتی أن أخبرك أنی حد"ثتُ « أنییس " بما أنهیت به الله" من ظنونك . »

فاحمر وجه عمى ، ونظرت إلى شرّراً ، فاستأنفت حديثى قائلاً :

- « اطمئنى بالاً يا عملى فإن « أنييس " غير شقيلة بغرامها . »
فازداد وجه عملى احمراراً كمن شعر بالهيار صرح أحلامه ، فرأيت
من صواب الرأى أن أختم مداعبتى ، فأمسكت بيد « أنييس » واقتربنا
من مقعدها وركعنا عندها ، ففهمت أنّنا خطيبان ، فالهالت علينا تقبلنا
وتزجرنا حيناً على أننا كتمنا عها هذا الخبر المفرح ولو ساعات قلائل .
وأقبل علينا السيد « ديك » و « بيجوتى » يغمراننا بالهنئات واستسلمنا
جميعنا إلى دواعى الأفراح .

واحتُ فيل بزواجنا بعد أسبوعين، وشهده النخبة القليلة من أصدقائنا، ولما خلونا أنا و « أنييس » معاً قالت لى :

\_ « أما وقد أصبحت زوجي فأرى لزاماً على أن أبوح لك بسر كنت

# غيبتُه في صدري . » فقلت :

- « هاتیه یا حبیبی ! » فقالت :
- « إنه سر يرجع عهد الى الليلة التى انتقلت فيها "دورا" إلى بارتها . أتذكر أنها طلبت منك أن تأتى فتصحبني إليها . » فقلت :
  - « نعم أذكر . » فقالت « أنييس » :
- « أخبرتني أنها تترك لى بعدها أمراً من الأمور ، أتدرى ما هو ؟ » وحسبتني حرزرت ذلك الأمر ، ولكنني التزمت الصمت ، فتابعت « أنييس « حديثها وقالت :
  - « طلبت منى أن ألبي رغبة أخيرة لها . » فقلت :
    - -- « وما هي ؟ » فقالت :
    - « أن أجيء يوماً فأحل مخلّها عندك . »

واستسلمت « أنييس » إلى البكاء واستسلمت أنا أيضاً إليه ، مع أننا كنا سعيد ين كل السعادة .

وتوالت الآيام ومرّ على زواجنا عشرُ سنوات ، فازدد تُ شُهْرة ومالاً ، ورزّقنا الله بثلاثة بنين ، وكانت الهناءة مخيّمة على حياتنا .

وفى مساء أحد أيام الربيع ، بينها كنتُ أنا و « أنييس » جالسين إلى الموقد ومن حولنا أبناؤنا الصّغار يمرَحُون ويلعبون، أُبُلغْتُ أن غريباً يَرْغَبُ في مقابلتي ، ويقول ويقول أنه آتٍ من سفر بعيد ، فسمحت بالمقابلة فلخل علينا بعد قليل رجل شيخ أبيض الشعر ولكنه مرفوع القامة قوى الاجلاد فتبيّنته وخففت إليه على الفور أحييه وأرحب به وأقول:

... « أهلا وسهلا بالسياد « بيجوتي "! »

وكان السيد « بيجوتي » . . .

وبعد أن استتب به المقام ، وأجلس الأطفال الصّغار على رُكْبتيه بداعبهم ويلاعبهم قال :

ـــ « إنه ليوم " سعيد أزاك فيه يا سيد " كوبر فيلد " وأرى معك روجتك الكريمة ! » فقلت :

- « و إنى لسعيد جد المرآك يا سيد در بيجوتي " . » فقال : - « وأرى هذه الزهرات الجميلة من أبنائك . . . لم تكن أنت أكبر

من كبيرهم يا سيَّد "كوبر فيلد "عندما رأيتك لأوَّل مرَّة . » فقلت:

ـــ ﴿ لَقَدْ تَغَيْرِتُ أَنَا وَكَبْرِتُ يَا سَيِّدُ " بِيجُوتِي " أُمَّا أَنْتَ فَلَمْ تَتَغَيَّر

ولم تكبر ، فما زلت على ما عرفتك عليه من القوة والسلامة . »

ونادت « أنييس » المربية فذهبت بالأطفال إلى أسيرتهم بعد أن حيونا وقبدلناهم، ثم التفتت « أنييس » إلى السيد « بيجوتي » تسأله: - « أجئت إلينا وحدك يا سيد « بيجوتي " ؟ » فقال:

- « نعم يا سيدتى . قطعت إليكم رُقعة واسعة من البحار ، ولكنبى الست غريباً عن الماء ولا سيا إذا كان مالحاً . » فسألته « أنييس » :



\_ « أتنوى اجتياز هذه الرقعة الواسعة من البحار مرة أخرى . » فقال :

- « نعم يا سيدتى ولكنى حرصتُ على رؤية السيد " كوبر فيلد " ورؤيتك يا سيدتى قبل أن يدب إلى " العجز والشيخوخة المُقْعيدة ، فما من شيء فى الحياة يعادل التَّمتُع برؤية الأصدقاء الأوفياء الكرماء . » ثم أخذ يقص علينا حياته فى « أستراليا » تلك البلاد النائية ، وعرفنا منه أنه لم يكتسب ثروة طائلة ولكنه بحمد الله هانى " ميسور ، وأنه عمل جاداً جاهداً فكافأه الله على عمله ، فسمعت حديثه مغتبطاً وقلت له : - « والآن حد "شنا عن السيد "مكوبر "ولعلك تعلم أنه وقلى المبلغ الذى نقدناه إياه قبل سفره ، وأبى إلا أن يعد " ه قرضاً ، فما من شك أنه على حال من اليسر والتوفيق . »

فد السيد « بيجوتى » يده إلى جيبه ، وأخرج منه حزمة أو راق مطوية طيًّا جميلاً ونشر منها صفحة من نجريدة وقال ؛

- « بدأ السيد " مكوبر " حياته هناك في فيلاحة الأرض مثلنا ، وانتهى به الأمر إلى أن يصبح اليوم قاضياً في مدينة " أدلائيد " . » فصحت مُعنَجناً :

- « أيجلس الآن في ميذَصَّة القضاء ؟ »
وأشار « بيجوتي » بإصبعه إلى أحد أنهار الجريدة التي نتشرها من

حزمة أوراقه، وقد م الجريدة إلى فقرأت فيها نبأ حفل كبير أقيم تكريماً للقاضى النزيه السيد « مكوبر » شهده علية القوم، وألقيت فيه الخطب تمجيداً للمحتنى به وثناء على حصافته ونزاهته وصائب أحكامه، وأشارت الجريدة إلى أن المحتفل به قد شكر الحاضرين بخطاب بليغ تتألق فيه المعانى تأليق أسلوبه الجميل، فشرب القوم نخبه ونخب زوجته الكريمة ونخب أبنائه، وما فيهم إلا كل فتى نابغ ذكى، وكل فتاة حسناء تتحلى بحمال الخلق وكمال الخلق .

أدهشنی هذا كله وسر آنی ، ثم دلتی السید « بیجوتی » علی نهر آخر من الجریدة قرأت فیه ما یلی :

« إلى " داڤيد كوبرفيلد " المؤلف العظيم

لأن حرمت رؤيتك أيها الصِدِيقِ الكريم طول هذه السنوات التي باعدت فيها بيننا الآيام ، وفصلتنا البحار الزّاخرة الحدّارة ، لقد سرني أن أراك دائمًا بعين الفكر والحيال ، وأن أتتبتع نهوضك إلى المجد والعلافى جناحتى نسر قوى لا يحلّق إلا في أعالى القمم ، كما سرني أن أنعم بهذه المآدب الفكرية التي أد بها للنّاس أجمع قلماك الفيّاض .

وإنى بلسان المهاجرين ، وبلسان الإنسانية جمعاء ، أبعث إليات مع صديقي وصديقك السيد " بيجوتي " الراحل إلى الوطن لفترة قصيرة ، أصدق التحية ، وأسمى آيات الشكر ، وأبلغ الثناء على نبوغك وعبقريتك .

ومهما ابتعدنا عن أرض الوطن، فقلو بننا معلقة به، ونفوسنا فخورة "
بالندّابغين الندّابين من أبنائه، فاستمر أيها النسّر العظيم في تحليقك، توفر العالمين عامة، ولأصدقائك من سكان و أستراليا "خاصة مطيراً جميلاً فوق سُحنب الفكر، يتبعونك فيه على أجنحة المديّة والفائدة وفيهم صديقك القديم

# القاضى دو مكوبر ". »

واستضفنا السيد «بيجوتي » عندنا طول إقامته «بلندن »ولم تزد عن شهر ، وأقبلت عمتى وشقيقة «بيجوتي » تزورانه وتتمتعان بلقائه ، وحيا قرّر الإبحار عائداً إلى مهجره ، ود عناه أنا و «أنييس » وحملناه إلى أصدقائنا هناك عبطر السلام .

تلك هي قصتي ، فكله التفت بعين البصيرة إلى الوراء قبل أن أختم هذه الصفحات ، رأيته و « أنييس » إلى جانبي نتابع رحلتنا في طريق الحياة ، وكثيراً ما أسمع على طول ذلك الطريق أصواتاً عزيزة على . والآن وأنا أكاد أفرغ من مهمتي ، تجيش الذكريات في صدري فلا أستطيع لها د في عا ، وفي وسط السماء التي تتألق فيها نجوم هذه الذكريات ، كوكب ساطع يغمرني بنوره السماوي ، إنه وجه ملكي الحارس وجه زوجتي « أنسس » .

وقبل أن أريح القام التفتُّ إلى يمينى فوجدتها كعهدى بها جالسة إلى جوارى مشرقة الوجه بسامة العينين، إن المصباح يكاد ينطنى ، والفجر يكاد يلوح ، و « أنييس » التى لولاها ما كنتُ شيئاً مذكوراً ، جالسة في صمت وسكون إلى جوارى يمد ني حبها بالعزيمة ، وينير لى وجهها الوضاح سبيل الفوز والنجاح في هذه الحياة. . .



1996/1741		رقم الإيداع	
ISBN	977 - 02 - 4336 - 1	الترقيم الدولى	

۱/۹۱/۳۸۵ طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

١٧ - مقيرة الأفيال ١٨ - الربان بلود - علكة السحر - كريم الدين البغدادي - ١٩ - تيودورا ۲۰ – أوليفر تويست ٤ - آلة الزمن ۲۱ - دافید کوبر فیلد ه - الأميرُ والفقير ٦ - كتاب الأدغال ١٠ - كتاب الأدغال ١٠ - في مهب الربيح . ٢٣ - الفخ الذهبي ۷ –بينوکيو ٢٤ – عودة المحارب ٨ – نيوءة المنجم ۲۵ – حصان طروادة ۹ - روین هبود ۲۹ - نساء صنبرات ١٠ - دون کيشوت ۷۷ – توم سویر ١١ - الناتي ٧٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن ١٢ - جزيرة الكنز ٧٦ - الربان الجريء ١٣ - كنوز الملك سليمان ٣٠ - العم تعناع ۱۶ - سجی زندا اً ۳۱- أم حيان

٣٢ – كوخ العم توم

١٥- الزنبقة السوداء

١٦ - مرن قليت